

محمد أبو معتوق

الماء..والأسماء

محمد أبو معتوق

الماء....والأ سـماء

- رواية -

من منشورات اتحادكتاب العرب
1998

تصميم الغلاف للفنان :

الاهداء

إلى المدينتين.
حلب.... وموسكو
وقد اضطربت فيهما العناصر
والماء
والأسماء

المؤلف

الأم

أنا

إني

إنني..

إنني أرغب في تعليق كل شيء، كل شيء، حتى ولو ترنحت الجدران من وطأة المسامير والثياب والذكريات المعلّقة. وعندما تمر العصافير.. أرغب أن أسير حافياً حتى نهاية الممر الطويل.. الممر الموصل بين غرفتي وغرفة العميد... فالسير حافياً يشعرني بالأرض وبأنها ما تزال موجودة.

أما السيكارة التي أسحبها بأصبعين مدربتين من جيب القميص لأشعلها، هذه السيكارة تشعرني بالأمن، وبأنني موجود قُرب صوت زوجتي الشقراء الأجنبية المتفرغة الآن وغداً وإلى أبد الآبدين، لتنظيم الحديقة، وتخريب عقلي.

لقد اضطررت مرات كثيرة لإحراق مراكبي وإعلان الحرب ضدها، بسبب استنكارها الشديد لتمسكي بعادة التدخين في غرفة الجلوس المغلقة، واستطعت أن أكسب الحرب، وأضمن لنفسي حرية مطلقة في التدخين في جميع الغرف بما فيها السقيفة. لقد كان انتصاري في هذه المواجهة كاسحاً، إلى درجة أن المسكينة اضطرت (من أجل أن تبتلع الإهانة إلى تتعلم التدخين وقد تقصدت ونكاية بي أن تختار دخانها من أشد الأنواع المحلية غلظة وكثافة، وأن تقعد قبالتي، قبالتي تماماً لتنفث دخانها في وجهي دون النظر إلى مكانتي العلمية، والدور الذي نذرت نفسي لألعبه في الحياة السياسية العامة. كثيرون انتبهوا إليّ وأنا أدخن، وصارحوني بحقيقة لم يلحظوها مع غيري، وهي أنني عندما أسحب من اللفافة نفساً، أخرج كميات من الدخان أكثر بكثير من التي سحبتها من السيكارة، وقد همس لي صديق متفقه في شؤون الدخان ومعتقداته بأن هذا دليل على وجود حريق، وأين تساءلت ضاحكاً؟ قال داخلك: عند ذلك بدأت أنتبه إلى الدخان، وأهز رأسي كما يفعل الفلاسفة، لأقول، إن أخطر الحرائق تلك التي لا نلمح دخانها، وقد أردت بذلك أن أقدم لنفسي العزاء رغم اعتقادي بأن

حرائقي التي يظهر دخانها بكثافة عالية. حرائق رديئة. وتبعث على السعال والهذيان.

هذه الرغبات والأسئلة انتابتني جميعاً وأنا أقرأ الرسالة، لقد اضطرت زوجتي وبسبب من إصابتها ببوادر ذبحة صدرية إلى الذهاب إلى بلادها لتلقي العلاج. وبعد مدة من سفرها شعرت بضرورة أن تكون قرب واحد هشٍ مثلي امرأة صلبة مثلها، وها هي ترسل إليّ صرختها من وراء الثلوج، وقد كتبت صرختها بالعربية، رغم أن بقية الرسالة كانت بلغة زوجتي الأم.

كتبت بين قوسين:

يا عواد. يا زوجي، تعال إليّ.

وقد بررت صرختها تلك بلغتها فقالت في الرسالة: إنها تشعر بوحدة مميتة وأن وحدتها ستقتلها، ربما قبل أن تفعل الذبحة الصدرية، ثم تابعت، لقد اعتدت على الحياة الرديئة معك. لذلك تريدني أن أكون معها لنعود معاً في أقرب فرصة، وقد طلبت مني أن أصطحب معي ثلاثةٍ كروزات من الدخان الذي اعتادت عليّه حتى تنفخها جميعاً في وجهي لأنها تشعر بحنين قوي إليّ.

ثم سألتني عن أخبار ابنتنا علياء، وهل أنجبت طفلها ولست أدري ما هي الدوافع التي شدت رأسي إلى النافذة لأمسح حديقة بيتنا بنظرات متفحصة لأتذكر حركة ثوبها وقدميها واستدارة مؤخرتها وهي تنحني على الأحواض لتقوم بأشياء لا أفهمها. ولكنها تملأ الحديقة بالخضرة والحياة.

-أنت في الخمسين يا شامل[1]

-وأنتِ في الخمسين يا كاتيا.

-هل يمكن أن تكون الحياة سخيفة وغالية.

-يمكن ما دامت أغلى المتعات أقصد القهوة والسجائر، غير مستحيلة. ثم ينفث كل واحد منا دخانه في وجه صاحبه بود، ونحن نشعر أن أحداً منا يكاد أن يحقق أهدافه في النيل من صاحبه.

-عندما ستموت يا شامل سأحزن عليك كثيراً، وعندما لا تموت، سأحزن أكثر، ثم ترفع طرف ثوبها لتريني تجاعيد ساقيها.

-منذ خمس سنوات لم تضع يدك علي.

كانت كاتيا تكره أصدقائي، نكاية بي، وكنت أدعوهم إلى بيتي نكاية بها. أول الأمر، تفتح الباب فأدخل ويدخل الأصدقاء، فتنظر إلى وجهي دون أن ترد على تحيتي، وتنظر في وجوه أصدقائي ولا ترد على تحياتهم، ثم تخبط الباب باهتمام زائد

---

[1] -شامل وعواد: اسمان لشخص واحد.

خلف آخرهم فترج البناية من شدة الحفاوة والترحيب، ثم تذهب إلى المطبخ لتحضّر القهوة، كانت امرأة منظمة بطريقة مدمرة.

تعد القهوة وتدخل حاملة الصينية ثم تنظر في وجوه الأصدقاء، وتضع الصينية على الطاولة وسط الغرفة وتعود، وكنت اتابع المهمة وأوزع الفناجين، بابتسامات مضاعفة لأعوض على الأصدقاء النقص الفادح الذي يحسون به، بعد ذلك، تقوم زوجتي بتحضير الصحون، والكؤوس والمقبلات لتبدأ السهرة، وكان جيراننا في الطابق الأعلى يعرفون عدد الصحون التي تضعها زوجتي على الطاولة لأنها تحاول أن يصدر عن كل صحن خبطة كأنما على الطاولة راقص فلامنكو، لذلك يزداد انشراح أصدقائي بفضل آذانهم الموسيقية الحساسة ويحاولون مع الإبتسامات المرافقة أن لا يكون وقت السهرة طويلا، وأحاول أن يمتد ويطول حتى تنام زوجتي، خلال ذلك كانت كاتيا وخلال كل نصف ساعة تطل علينا لتسألنا بلهجة غاضبة هل تريدون شيئاً. وكنت أعرف قصدها، كانت تريد منا أن نطلب صحوناً إضافية لتخبطها على الطاولة غير أنني وبقية الأصدقاء لم نكن نمكنها من تحقيق هذه الرغبة.

وعندما يهرول الأصدقاء مودعين، كانت تقترب مني وتمسح بكفها على ذراعي وتقول في شبه اعتذار، المسلسلات المعروضة في التلفزيون غير جيدة ولا أحب أن أتفرج عليها وحدي، عندها تشعر زوجتي وأنا بأننا من ضحايا المسلسلات المحلية، لذلك يغمرنا شعور عميق بالتضامن فنجلس متقابلين ويخرج كل منا علبة سجائره ويبدأ بالتدخين، والنفخ كل في وجه صاحبه حتى تلفنا غيمة من السعال ويتطاير الرذاذ الحنون من كلينا، فنبعد علب الدخان، ويحمل كل منا منفضته ويذهب إلى المطبخ ليفرغها ويعود بعد أن يحس بأنه أزاح عن قلبه هماً مقيماً.

شيء آخر يدفعنا للتوقف عن التدخين، أنه صوت سعال ابنتنا علياء، في الغرفة الشمالية المطلة على الحديقة، فرغم ذهاب كاتيا والتأكد من إغلاق الباب للبدء باحتفال التدخين الأولمبي المشترك، رغم ذلك، كان الدخان العنيد يتسرب من أضيق الفتحات ليصل إلى رئتيها فتسعل وهي نائمة، فيدفعنا سعالها للخروج إلى الحديقة ومتابعة التدخين بضمائر مرتاحة، هذا طبعاً في حال أننا لم نأخذ نصيباً وافياً من التدخين وظلت منافض السجائر مملوءة بالعقوب حتى وسطها، في كثير من المرات وفي ليالي الشتاء البارده كنا نسمع صوت سعال ابنتنا (علياء بالعربية، وفالنتينا بالروسية) فنخرج إلى الحديقة بعد أن نغطي رأسينا أنا وكاتيا ببطانية ونبدأ التدخين وجهاً لوجه، وكان الدخان المشترك هو الشيء الوحيد الذي يقرب بيننا، وكانت زوجتي تحاول أن تستنشق أقصى ما تستطيعه من الدخان الذي أنفثه في وجهها في حالة من الوجد والتلذذ كأنما تحاول أن تتصل بي عن طريق دخاني، وعندما كنت ألمح الرطوبة

على أطراف عينيها، أتشاغل بالسعال، أو بإشعال لفافة جديدة ثم أهرس عقب السيكارة القديمة على الأرض، وأنحني لالتقط العقب من الارض لأضعه في كفي حتى لا تنتبه الحديقة إلي.

عندما كنت أنحني لأحمل عقب اللفافة كانت كاتيا تنحني لأن طرف البطانية الآخر يجرها معي إلى الأرض، فيقترب وجهها من وجهي فتبرق في رأسينا ذكريات الأيام القليلة التي حاولنا أن نتبادل فيها القبلات.

عشرون عاماً عمر ابنتنا (علياء بالعربية، وفالنتينا بالروسية). عندما ولدت ابنتنا علياء في موسكو، وكنت في سنوات الاختصاص الأخيرة، كانت رائدة الفضاء السوفيتية فالنتينا تيرشكوفا حديث الناس في العالم أجمع، ها هي امرأة تغزو الفضاء، وقد استطاع الغزو أن يمتد بآثاره إلى بيتنا، لذلك أحبت زوجتي أن تتم فرائض الغزو وتطلق على ابنتنا اسم (فالنتينا) وهو اسم لا أنكر جماله وجاذبيته.

المهم أن ابنتنا دخلت حياتنا فجأة كأنما هي كائن من الفضاء الخارجي، ولتعزيز هذه الحالة أسميناها فالنتينا، غير أن الاسم الذي سجل في سجلات السفارة السورية في موسكو غير ذلك، فعندما ذهبنا بالصغيرة إلى السفارة أنا وكاتيا زوجتي. إنفردت بموظف السفارة المسؤول وكان من معارفي وقلت له بالعربية عندما تسألني عن اسم المولودة سأقول لك أمام زوجتي (فالنتينا) وعليك أن تقوم بدورك الوطني اللازم وتسجلها (علياء).

وهكذا تم، وصار لابنتنا اسمان فالنتينا بالروسية، وعلياء بالعربية، وقد فعلت ذلك دون أن أحسب حساباً لوطأة حرف العين وصعوبته، وعدم قدرة زوجتي ولا أية زوجة أجنبية أخرى على لفظه صحيحاً صريحاً كما نفعل في بلادنا وقد تقصدت أن أطلق على ابنتنا اسم علياء مخلصاً في ذلك لمعاني العلو والإرتفاع القريبة كثيراً من غزو الفضاء الذي قامت به فالنتينا الأصل، وقد قلص ذلك من إحساسي بالذنب تجاه زوجتي. لقد اعتبرت كاتيا وهذا من حقها، أن انجابها لابنتنا أكثر أهمية من الفضاء كله، ذلك الفضاء الذي قامت بلادها العزيزة بغزوه.

عندما تعلمت كاتيا الحروف العربية، وحاولت قراءة الوثائق، عرفت أنها كانت ضحية مؤامرة وأن ابنتها كائن لا علاقة له بالفضاء ولا الغزو، لذلك اعتكفت شهراً برمته في المنزل دامعة العين، تمارس تدريبات شاقة على ضرب رأسها بالجدار ومحاولة تعلّم لفظ حرف (العين) الذي تفتتح ابنتنا اسمها به.

وبعد شهر من التدريب والفشل المستمر اقتنعت كاتيا بالاسم بعد أن شرحت لها المعاني العظيمة التي ينطوي عليها. رغم مواظبتي على مناداة ابنتنا باسمها الفضائي الروسي تقديراً لمشاعر زوجتي التي باتت تشعر أن ما يربطها

ببلادها الأم شيئان (اسمها واسم ابنتها) ضاربة عرض الحائط بالعلاقات الحميمة والاستراتيجية التي تربط بين حكومتينا وبضمانة زوج مثلي وابنة مثل ابنتنا.

-ماذا تنفعني العلاقات الحميمة والاستراتيجية بين حكومتينا إذا كانت العلاقة بيننا غير حميمة.

هكذا كانت زوجتي كاتيا ترد عليّ عندما أطالبها بضرورة أن تكون مخلصة لموقف حكومتها وساعية لتمتين علاقتها معي على أساس تقديم بعض التنازلات، كأن تسمح لي بالذهاب إلى المقهى مرتين أسبوعياً، وكان ردها دائماً هو الرفض وكانت لها وجهة نظر مثيرة للانتباه، تتلخص في التالي:

إذا وافقت أنا كاتيا على تقديم التنازلات من يضمن لي أن لا تصاب حكومتنا بعدوى التنازلات فتنظر إلى أعدائكم في الشرق والغرب نظرة رضا وتضطر ابنتي لتدفع الثمن في المستقبل من حياتها وحياة أولادها.

بهذه النظرة الشاملة كانت كاتيا تنظر إلى الأمور لتحول بيني وبين النزول إلى المقهى مرتين أسبوعياً.

ابنتنا الفضائية (علياء) ولدت بيضاء شقراء على لون وملامح أمها، غير أن تغيّراً ملفِتاً طرأ عليها بعد أن اجتازت سنواتها الأولى، وهو ظهور تباين في لون عينيها، إحدى العينين كانت زرقاء، والثانية بنية، في لون بشرتي أنا. وكان ذلك مدعاة للغرابة وللكثير من الكلام والانتباه.

أما أنا فقد نظرت للأمر نظرة أكثر عمقاً واعتبرت هذا التباين إنتصاراً لطبيعتي وأفكاري، فأنا مثلاً كائن بني، لكنني أحمل أفكاراً شقراء تميل إلى الإحمرار وبخاصة في حالات الغضب وإلقاء المحاضرات والمداخلات في المقهى وعلى مدرجات الجامعة، وهذا الاختلاف بين لون البشرة والمعتقدات دليل غنى وتفتح، ودليل على وحدة المصير البشري رغم تباين الجغرافيا والألوان، والبشر.

وقد أرغمت نفسي على الاعتقاد بذلك، رغم التعارض الفاضح بين مزاج زوجتي ومزاجي، هِذا التعارض الذي يخلخلني ويفكك معتقداتي. فأبذل الجهد والعرق لإعادة ترتيب الأمور.

بعْد أن كبرت ابنتنا (فالنتينا) ودخلت المدرسة سرعان ما نَظَرت للأمور بعينها البنية، واستطاعت رغم طفولتها أن تحسم الأمر وتفرض علينا شروطها وقرّ قرارها على اعتماد اسم علياء اسماً وحيداً لها واستطاعت أن ترغمنا جميعاً على النزول عند رغبتها لأنها كانت لا تجيب على الاسم الآخر، حتى ولو صرخنا به بكامل قوتنا قربها.

-أنت تلاحظين، ابنتنا لا تحب غزو الفضاء، تريد أن تظل على الأرض لتتمسك بها، هكذا كنت أمازح زوجتي.

-الذين يفكرون بغزو الفضاء يعرفون جيداً كيف يتمسكون بالأرض ويعرفون أيضاً كيف يدافعون عنها.

هكذا ترد زوجتي كاتيا على سخرياتي، في محاولة مقصودة منها للنيل مني. وكنت أضطر للصمت بعد كل رد صمتاً لا تقدر عليه الكائنات الفضائية.

-بعد أن حسمت ابنتنا معركة الاسم لصالحها بدأت تزداد سمنة مؤكدة بذلك لأمها وبصورة غير مباشرة أنها غير جديرة بأن تكون رائدة لأي فضاء حتى ولو ولدت في محطة لاطلاق الصواريخ.

إنني رغم تباين لون عيني ابنتي وشراهة زوجتي للتدخين وابداء الملاحظات، أتمتع بسمعة أدبية وأكاديمية طيبة في الجامعة وفي قسم العلوم الإنسانية حيث أعمل وحولي مجموعة من الطلاب اللامعين يعتبرون أن الدنيا قد ضحكت لهم عندما واتاهم الحظ وأشرفت على تخصصاتهم العالية ورسائلهم لنيل شهادات الدكتوراه والماجستير، وهم مستعدون لقلب المدينة رأساً على عقب من أجل البحث عن الأدوية المفقودة التي تحتاجها زوجتي من أجل الضغط والتجلط والتمييع والكولسترول وأشياء كثيرة أخرى. وقد بدأت زوجتي ورغم مرضها تشعر بالاعتزاز بعد أن صارت تحس أن زوجاً يستطيع أن يؤمن لها مثل هذه الأدوية لا بد وأن يكون رجلاً مهماً وعلى درجة عالية من الكفاءة العلمية والمعرفية، وقد أغبطني إحساسها الذي لم تكن لتصرّح به أبداً، أغبطني لأنه يساعدها على الموت بروح مطمئنة.

فاتني أن أقول أننا أنا وزوجتي وبعد أن دخّن الواحد منا سجائر تستطيع أن تغطي خطوط العرض والطول، حول الكرة الأرضية وبعد أن شرب الواحد منا خلال حياته صهريجاً من القهوة السوداء عالية التركيز، بعد أن فعلنا ذلك ونحن نراقب الأحداث السياسية والاجتماعية التي تعصف ببلادنا والعالم، ونمتعض ونتهم الآخرين بالتقصير واللاوطنية، بعد أن فعلنا ذلك أحسسنا بحسن نية أن حياتنا قد حققت أهدافها، لذلك اتفقنا وقد رافق ذلك ظهور البيروسترويكا في بلاد زوجتي، على أن يحاول كل منا أن يقتل صاحبه بالطرق السلمية. وقد عقدنا هذا الاتفاق البريء بعد أن نظر كل منا في وجه صاحبه، ثم اغرورقت أعيننا بالدموع فحالت مشاعر الكرامة لدينا أن نتركها تسيل إلى الأسفل لذلك ذهبنا إلى المياه لنغتسل ونشعر بالتجديد الغريب الذي أدخلناه على حياتنا.

أن يقتل إنسان إنساناً آخر يكاد يحبه. تلك مسألة فيها الكثير من الهجاء للسياسة، والزمان، وقد أردت أن أوضح الأمر لزوجتي بالطرق السلمية ذاتها:

-إننا عندما نقتل بعضنا بعضاً، بدون دماء وطعنات، ثم نموت ونتفسخ فإننا نحقق انتصارين في آن واحد، انتصاراً على

الحكومة بمعنى أنها لم تعد قادرة على الزامنا بأية برامج وسياسات وممنوعات وضرائب ومدائح وإصغاءات للمناسبات والخطابات والأجهزة. إنها بكل صراحة أعني الحكومة ستكون بالنسبة لنا غير موجودة، وهذا الأمر كاف ليجعلها تحس بالندم على فقدان آذاننا.

التحدي الثاني نوجهه للزمن، فهو بدوره لن يكون موجوداً بما فيه الكفاية ليؤثر علينا.

إنّ ِ الدِيدان ُعندما تقوم بنحت هياكلنا العظمية بطريقة ماهرة يعجز أمهر ُالقصابين عن انجازها، إن هذه الديدان، تعمل لصالحنا، فبعد أن تلتهم كل دودة ما تلتهم، وترفع رأسها الشره لتنظر إلى الأعلى إنما تحاول ذلك لتغيظ الزمان الذي لم تعد له أية سلطة علينا.

بهذه الحفاوة، والمشاعر الطيبة بدأت حربي ضد زوجتي لأزين لها فضائل الموت وأهميته وجماله من الناحيتين السياسية والفلسفية.

-انظري إلى التجاعيد وكيف تنام على بعضها بحنان كأنما تمسك كل واحدة عكاز لتستند به على أختها.

-إذا تابعت حديثك بهذا العمق وهذا الشمول فإنني سألقي بنفسي من النافذة لأموت. هكذا ردت زوجتي على كلامي العميق.

-ولكن أنت تعرفين أن بيتنا في الطابق الأرضي والمسافة التي تفصل بين حافة النافذة والأرض ليست كافية.

أجابت كاتية بمزاج حاد.

-عندي من الغيظ ما يكفي لأموت حتى لو قفزت من فوق علبة كبريت.

-هذه الطريقة أسميها انتحاراً، وهي عمل غير شجاع وفيها خروج على الاتفاق.

إن المزاج الحاد، يعتبر من فصيلة الأدوات الحادة. واستعماله غير مشروع في اتفاقيتنا، يمكنك الصعود إلى بيت أحد الجيران في الطابق الثالث وشرب فنجان من القهوة على شرفتهم، والنظر إلى الحديقة من أعلى...

ثم عندما استمعت ابنتنا الفضائية علياء لبعض من حواراتنا وكانت تعيش مشكلة عاطفية لم ترد أن تصرّح بها، تبرعت من أجل فض الاشتباك وإنهاء المعركة، أن تنتحر نيابة عنا لتتخلّص منا ومن مشكلتها، ثم انخرطت بالبكاء العميق حتى جرّحت الشهقات قلبينا.

لذلك انصرفنا عن تطبيق معاهدتنا، واتجهنا إلى ابنتنا التي

كبرت بمفردها دون أن يتيح لنا انصرافنا الأكاديمي للتحديات والصراخ. أن ننتبه إليها وإلى طفولتها ويفاعتها. ودرجة الاختلاف بين لوني عينيها. وفي محاولة منا للتعويض قررنا أن نتقرب من ابنتنا ونلاطفها. لتقص علينا ما ينغص عينيها ويدفعهما معاً، الزرقاء والعسلية للبكاء بدمع من لون واحد. وكنت أعرف القاعدة التي تدفع الأشياء المتباينة في اللون والمزاج والمعتقد للتوحّد والتضامن في الأزمات.

غير أن ابنتنا الفضائية أنكرت علينا الحق بسؤالها واعتبرته انتقاصاً من حريتها، وقد دفعني ذلك لأوضح لها بأننا لا ننوي مصادرة حريتها ولكننا نرغب في مشاركتها، والمشاركة تخفف من ضغط الأزمة وتشعر الطرف المأزوم بأنه يحظى بالحب والتضامن. وكان من نتيجة ذلك أن نظرت ابنتنا إلينا ومسحت دموعها بظاهر كفها، ونهضت ودخلت غرفتها بعد أن خبطت الباب في وجهينا.. فاعتبرنا هذا التصرف من ابنتنا بمثابة إعلان للحرب. وباعتبارنا الطرف الأضعف في هذه المواجهة فقد قررنا اللجوء للمفاوضات، هذا الأمر قدرته كثيرا في زوجتي لسبب هام هو أنها مواطنة لدولة عظمى، وتستطيع أن تستخدم الأسلحة الثقيلة التي تستخدمها ضدي، وتربح المعركة غير أنها أدركت أن ذلك لن يفيد، لذلك نهضت وضربت الباب على ابنتها وصاحت: فالنتينا، فاليا، فاليتا، لتترك استجابات طيبة في وجدان ابنتنا من خلال استخدام اشتقاقات محببة من اسم فالنتينا، وقد لعبت النداءات دوراً طيباً في تحريك مفاصل الباب وقبضته فانفتح ودلفت الأم إلى الداخل.

خلال ساعة من الانتظار بينما كانت زوجتي كاتيا في حالة اجتماع مع ابنتنا علياء، راودتني أفكار كثيرة عن أسباب الأزمة، لكنني وبسبب من الشك الأكاديمي المزمن، قررت أن أنتظر النتائج التي ستصدر عنها المباحثات.

بعد قليل، وبما أن الأم مستودع أسرار ابنتها فلا بد وأن تخرج كاتيا بالحقيقة كاملة لتخبرني بها فنضطر لتأجيل اتفاقنا والانصراف معاً لحل معضلة ابنتنا. الشابة التي بلغت منذ شهور الواحد والعشرين عاما، بالإضافة إلى الطول الفارع والشقرة الحادة التي تدير الرؤوس، وربما كان لهذا العمر وهذه المواصفات دور في الذي يحصل معها. ربما تعيش حباً، من طرف واحد، وهذا ما يعذبها، وربما لم تكن تحب، وتعيش انتظاراً مراً، وهذا يعذبها أكثر ويعذب فتوتها ويفاعتها الصارخة.

بعد أن حصلت ابنتي علياء على الثانوية العامة بمجموع متوسط قررت الذهاب إلى الاتحاد السوفييتي لمتابعة الدراسة، لدراسة المسرح، وقد رغبت ذلك بعد أن شاركت بدور صغير في مسرحية قدمتها المدرسة. ودخل في روعها أنها ستكون ذات شأن إذا تابعت الدراسة في هذا المضمار. والذي عزز إرادتها على متابعة ذلك اتقانها اللغة الروسية بسبب أمها. والذي يتقن اللغة الروسية ليس ضرورياً أن يتقن الحياة الروسية، حتى

ولو كانت أمه كاتيا، لذلك عارضت السفر وطلبت من علياء أن تبقى لتتابع دراستها في بلدها. فلا بد قلت في نفسي إذا ذهبت وهي فتاة وحيدة وطويلة، من أن تعود إلينا بعد سنوات تحمل بالإضافة إلى الشهادة عدداً من الأولاد من قوميات مختلفة شقرا وزرقا ورماديين، وهذا الأمر يتعارض مع الدوافع السلوكية والاجتماعية في بلدنا.

لقد وجدت نفسي أميل لأن أعارض بشدة سفر ابنتي للدراسة، غير أن تحالف الأم والابنة طوّح بمقاوماتي ورفضي، فاندفعت زوجتي لترتيب السفر والاتصال بالسفارة السوفيتية في دمشق، وقد أقنعتني زوجتي كاتيا بأنها ستسافر مع علياء لتحرسها، غير أن ردة فعل علياء كانت شديدة فقالت لأمها موضحة: إن سبب سفرها هو رغبتها في الهرب من البيت ومنا. يعني من أمها ومني، فأكبرت في ابنتي موقفها واعتقدت أن فتاة مثلها قادرة على صناعة مستقبلها دون وصاية من أحد، وبذلك بدأت أميل للاعتدال، وانصرفت لترتيب أغراض السفر لابنتي بعد أن رفضت زوجتي متابعة ذلك.

خلال مضي ثلاثة أشهر على سفر علياء لمتابعة دراسة المسرح، وصلتنا منها رسالة تخبرنا فيها أنها ستعود، بعد أن أقلعت عن التفكير بمتابعة الدراسة هناك. وقد سررنا أنا وأمها لهذا القرار.

صحيح أننا في حضورها لم نكن نحس بها كثيراً، غير أن غيابها ترك فراغاً كبيراً لم يكن ممكناً أن نملأه سوى بالتدخين وضرب الرأس على الجدار.

والحديث عن الحتمية التاريخية والتفاؤل الثوري، وكنت من طرفي في حالة انتظار وترقب لعودة ابنتي من الاتحاد السوفييتي لأختبر من خلالها أسلوب الحياة الجديدة حتى أتمكن من فهم الأمور على حقيقتها وقد جاءت ابنتي بأخبار غريبة انعكست على حلمها ودهشتها، فلقد ذهبت ولديها تصورات كبرى عن الحب والمشاعر، والعلاقات الدافئة والمقدمات الطقسية التي لا يتقنها الأولاد في بلادنا غير أنها وجدت عكس ذلك. كان الشبان هناك مباشرين في التعبير عن رغباتهم وليس لديهم الوقت ولا الرغبة لإظهار الحفاوة وتقديم المقدمات وإظهار الحماسات أو الانتباه إلى الاختلاف بين لون عيني ابنتنا هذا الاختلاف الذي قررت أن تستثمره. وتضعه كشرط ضروري ووحيد للبدء بالتعارف مع أي شاب. وكان الشبان هناك لا يحفلون بالعيون واللغة الحارة التي تصدر عنها، فقط كانوا منشغلين بما دون ذلك، مستعجلين أكثر من اللازم كأنما تطاردهم فصيلة من الذئاب، وابنتنا في بلادنا ملكة متوجة، وهي قبلة أنظارالقاصي والداني من شبان الحي، وكانت تتعالى عليهم جميعاً وتضطهدهم وتسخر منهم، وبخاصة أولاد الأسر الموسرة في حي المحافظة حيث نسكن.

عندما عادت إلينا كانت فتاة أخرى، صارت أكثر حفاوة بالحياة والدراسة بعد أن قررت إعادة تقديم البكالوريا للانتساب للجامعة. والاختصاص بالحقوق. أما أولاد الحارة ومن هم في سنها فقد صارت أكثر انتباهاً إليهم وأكثر استعداداً لمطارحتهم الكلام.

وقد تقدمت إلى الامتحان، وحصلت على البكالوريا. ثم انتسبت إلى الجامعة وها هي في الغرفة مع أمها تبكي وتتعالى شهقات أحداهما، وأضطر للتوقف عن الاسترسال في التذكر، واضطر للانتباه إلى عقب السيكارة الذي يلسع اصبعي فإزداد صفرة واندهاشاً.

فأنا عندما أسمع صوت البكاء دون أن أتمكن من تمييز مصادره أصاب بالحكة وأميل بأصبعي لسحب لفافة أخرى والبدء بالتدخين والسعال من جديد.

بعد عدّة لفافات انفتح الباب وخرجت زوجتي غاضبة.

-لم تصارحني بشيء قالت زوجتي: ثم مسحت دموعها بظاهر كفها، تريد أن تخبرك أنت أولاً، كأنها ليست ابنتي، كأنما الدم الروسي لا يجري في عروقها وبين فخذيها، كانما هي ليست في يوم من الأيام ابنة شقراء، وعينيها من جهة اليسار زرقاء مثل عيني والدي إلكسي تريد أن تراك أنت لتصارحك بالحقيقة، إنني لم أعد أفهم طبيعتكم ودماءكم حتى وهي تجري في شرايين ابنتي. ابنتي أنا يا تشيخوف العظيم... فادخل وافهم منها ما هي علتها. ثم قعدت.. وقد غلبتها التنهدات. وكان الأمر محيراً لي فأنا أعرف أن الأم مستودع أسرار ابنتها، والمثل عندما يقول.. (إقلب الطنجرة على تمها بتطلع البنت لأمها..) ولكن هل يعقل أن تنعكس الأمور.. يبدو أن الطنجرة انقلبت على قفاها فصارت البنت تشبه أباها.. قفاها.. يا للعار. ثم بدأت بإعداد العدّة للدخول ومحاولة الفهم. بعد أن اختارتني (علياء) أبنتي لأكون أنا شخصياً مستودع أسرارها وليس أمها، وقد انتبابتني بعض المخاوف، هل يمكن أن تكون قضيتها أعني مشكلتها وثيقة الاتصال بالمسألة الوطنية والقومية، وأن إفشاء سرها لأمها من شأنه أن يدفع حلف وارسو للاطلاع على أشياء تخصها وتخص بلادها وليس من حق أحد أن يشاركها ذلك غير رجل صلب الملامح والعقائد مثلي ينتمي إلى هذه البلاد، ويستطيع أن يفهم ويرى، يا أبا العلاء المعري العظيم.

إنني بصراحة ورغم ما أتمتع به من سمعة أكاديمية عالية كنت في حالة استغراب شديد، عندما دخلت إلى الغرفة مبللاً بدموع زوجتي وشهقاتها، فالدموع لا تضعف صاحبها وإنما تضعف الكائن الذي يجاور صاحبها ويلمح بريقها وهي تنساب على ظاهر الوجه، وبخاصة إذا كان الوجه.. وجه زوجة وحيدة

تَعْتَبِرُ البكاء عاطفة تخص دول العالم الثالث.

لذلك اقتلعت نفسي من ذكرياتي التي لم يعد يحتملها المقعد القماشي الوثير. ودخلت إلى الغرفة التي جلست ابنتي في صدرها مثل ملكة، وقعدت قبالتها وبدأت النظر إليها.

على وجه ابنتي كانت الصلابة وليس الدموع، الدموع كانت من نصيب زوجتي التي لم أكن أشاهدها تبكي حتى بمناسبة مرور الذكرى الخمسين لإلقاء القنبلة الذرية.

❑❑❑

البنت

أنا الفتاة الفضائية علياء كما يحلو لوالدي أن يدعوني و(فاليتا) كما تحب أمي أن تناديني. ولي عينان حلوتان واحدة عسلية والأخرى زرقاء. وهذا مصدر اعتزاز لي. واستغراب من الجميع، والدي ووالدتي يحبان بعضهما لكنهما طيبان كثيراً إلى الحد الذي لا يعرف فيه أحدهما كيف يعبر للآخر عن محبته ويرجع الفضل في ذلك لوالدي في المرتبة الأولى وللمداخلات السياسية الحادة التي يحاول أن يدفع بها أمام كل حوار، فهو يعتقد أن سبب إعجاب طلاب الجامعة به وبأسنانه التي أكلها الصدأ، هو ذهنه اليقظ الذي يستطيع أن يبتكر لكل ظاهرة تبريراً سياسياً، وعلى ذلك صار من الواجب عليه أن يعمم أسلوبه الجامعي في كل مكان، ولأن والدتي لم تكن برتبة عميد في الجامعة لذلك كانت تسيء فهمه وتحاول أن تستعين بالقوة الجبارة لبلادها في محاولة لتذكيره ببلاده وأهله وعدد الخيبات والهزائم التي أصابتهم مقابل الانتصارات التي حققتها بلادها، وكان يبتلع الإهانات الموجهة إليه مثل قذائف الكاتيوشا، ومن شدة الابتلاع والامتعاض صدأت أسنانه وقلبه وما عاد الحب يعرف إليهما سبيلا.

كان والدي طيباً إلى الحد الذي يحب فيه أن يحاط بالبهجة والفرح في كل مكان، ولأن الآخرين كانوا غير قادرين على صنع الفرح لأنفسهم حتى يتمكنوا من صنعة لغيرهم فقد حاول والدي أن يصنعه بنفسه ولنفسه، غير أنه عجز أيضاً بسبب عدم امتلاكه ملكة الخيال، لذلك حاول أن يفتعل المرح افتعالاً، فسعى وبتخطيط مسبق لأن يضحك بعد كل كلام يقوله وأحياناً قبله، وكان يتقصد أن ينتبه لملامح الآخرين ليرى تأثير كلامه. وتأثير ضحكاته فيهم، ولكنه غالباً ما كان يضحك وحيداً. وحيداً دون أية ضرورة، وكنت أفهم مشاعره وأحب طبيعته وروحه ودخان وحدته الذي ينفثه من فم حائر وعينين غائمتين، لذلك تقصدت أن أدخله إلى محنتي لأسمع رأيه.

أما أمي، فالناظر إليها للمرة الأولى والثانية، يظنها من نساء الـ (كي- جي- بي)، لكن الذي يعاصرها ويعيش نبضها ووجدانها يحسها أقرب إلى أن تكون من معتقلات الـ (كي جي بي). وليس منهم، غير أنها مع أبي ودون أن أفهم لماذا، تتعمد أن تكون على غير طبيعتها، خشنة وحاسمة كأنما تعامل تلميذاً ضبطه الأستاذ متلبساً بعدم كتابة وظائفه، وقد قام أحد أصدقاء والدي بتحليل هذه الظاهرة بطريقة مرحة عندما أكد أن التعامل مع الزوج بهذه الطريقة دليل على الحب الشديد.

بعد عودتي من الدراسة في موسكو شعرت أن مستقبلي هنا قرب أهلي وليس هناك. لذلك قررت إعادة الثانوية للتسجيل في الجامعة، وقد قدمت أوراقي إلى ثانوية المحبة الخاصة وانتظمت في صفوف الدوام اليومي وتعرفت على صديقتين في الصف ليستا من الطالبات الراسبات، هما: لمياء، ومروه.

كان للمدرسة باصات خاصة لنقل الطالبات إلى البيوت، غير أنني رغبت أن أذهب وأنصرف من المدرسة بطرائقي الخاصة.

تقع المدرسة في زاوية ينتهي طرفها الشرقي بمحطة انطلاق الباصات، وطرفها الغربي بالحديقة العامة وسط حلب. في حي العزيزيه.

في وقت الانصراف، يتجمع عدد من الشباب وطلاب المدارس المجاورة قرب باب المدرسة، بعضهم من أقرباء الطالبات وبعضهم الآخر من الشبان الذين حضروا بهدف بذل محاولات للانفراد بفتاة والحديث إليها عن الأحوال والأحلام، وكانت الفتيات في الغالب يسئن تقدير هذه المحاولات وينظرن بغضب إلى أصحابها.

الفتاة في بلادنا تحتاج لمطاردة طويلة والكثير من المقدمات حتى تقع في الشرك، وهي تحتاج إلى ذلك لأنها عندما تقع، يطالبها الجميع بالثمن الباهظ الذي ما عادت تستطيع أن تدفعه، أنا من طرفي لا أحمل خوفاً يمنعني من القيام بما أريد لكنني أحمل كبرياء شديدة الوطأة تمنعني من الانصياع، أسمع الكلام وأنظر إلى صاحبه وأرد عليه بمثله إذا تجاوز الحد. وكان من شدة كبريائي أنني تقمصت عادات وطرائق في المشي تدعو للسخرية، فقد كنت عندما أخرج من البيت أو المدرسة أضع كتبي على صدري وأحياناً تحت أبطي وأمشي مشية منضبطة، مشدودة الصدر والرأس، إلى درجة دفعت أحد الشبان المرحين الذين لحقوا بي في إحدى المرات لأن يسخر من مشيتي ويصيح خلفي واحد اثنين، واحد اثنين، إلى اليمين در، إلى اليسار در، إلى الأمام سر، كأنما يخاطب جنرالاً. وعندما التفتت إليه لا لأشتمه وإنما لأتبين ملامحه هرول راكضاً، فحزنت وكدت أن أناديه ليرجع ولا يخاف، لكن صوتي لم يبادر إلي، فانفجرت ضاحكة حتى اغرورقت عيناي، فانتبهت وتوقفت وأعدت النظر في مشيتي وأعضائي وحالة الانتصاب التي كنت أفتعلها في صدري وحركة ساقي، والتي تدفعني لتعب لا ضرورة له. وبعد استرخاء متعمد وتدريب طويل تخلصت من مشيتي المشدودة ودخلت مرحلة الليمونة والعفوية في المشية والنظرات، في وقت كانت فيه المدينة تدخل مرحلة الشد والطلقات.

بعد ملاحظات الشاب، تغيرت علاقتي بالأشياء وبدأت أحس بأنني غيري. وأنني كنت أعيش مرحلة مفتعلة لم ينتبه إليها أحد، لا أمي ولا أبي. ولم تساعدني ثقافتهما الشديدة الوطأة

على معرفتها وتجاوزها، حتى جاءت كلمات الشاب الغريب وإيعازاته لتقدم لي وصفاً جارحاً وحقيقياً، أدركت بعدها بعمق أنني فتاة جميلة ولي نهدان وعينان ملونتان وساقان، وشعر أشقر شفاف، على الجسد والمفارق، ولي أصابع وأحلام، ولقد حافظت بعد التحول الذي أصابني على عادة وحيدة تمت بصلة للمرحلة السابقة (مرحلة الجنرال) هذه العادة هي ربط شعري الكثيف وعدم تركه منسدلا على ظهري وكتفي، وقد كان ذلك مقدمة لحدوث ما حدث.

في أول الحي الذي نسكنه وعند موقف الباصات، لمحته. شاب تملأ الحيرة ملامحه وعينيه، لم يكن شديد الوسامة ولكنه يمتلك روحاً شديدة التأثير، حركات وجهه وعينيه فيهما إيحاء كبير، ولكنه يكاد يفتقر إلى شيء.. ربما إلى الجرأة التي لم أكن أفتقر إليها، ويبدو أنه انتبه مرة عن قرب إلى اختلاف لون عيني، فتابع الانتباه والاهتمام.

كثيرة هي المرات التي شاهدته يقف في انتظار الحافلة في مواعيد ذهابي وإيابي، وقد ضبطته في مرات عديدة في حالة انتباه إلي، وعندما كنت أنتبه إليه يتشاغل عني ويلتفت إلى الجهات الأخرى المعادية.

قلت في نفسي مرات كثيرة إذا لم يبادرني بالكلام سأبادره، غير أنه وفي المرات التي تقصدت فيها الحديث إليه كان يترك المكان ويمضي، كأنما يحس بمبادراتي ويخافها ولا يرغب أن أصرح بها. وقد طال الأمر حتى شعرت بالسخط والانشغال وبدأت أرمقه بنظرات غاضبة زادت في مخاوفه وأقلقته وبدأ بسببها يفقد بعضاً من وزنه. وبسبب ذلك كنت أمعن في ربط شعري بقوة لينسدل بإنضباط على ظهري.

لو أن أمه مثل أمي لما تردد كما تردد، ولكانت نظراته أكثر قوة وثقة، وليست أكثر عمقاً وخوفاً، ولربما كان أيضاً مثلهم، مثل شبان موسكو غير جدير بالحب كما هو الآن، فالجرأة تحقق الرغبات لكنها لا تصنع الحب.

في إحدى المرات وكنت في طريق العودة إلى البيت عند الظهيرة، كان الحر شديدا وكان عدد الناس في الباص قليلاً، ومن عادتي أنني لا أقعد على الكراسي في الممر حتى ولو كان أحدها فارغاً. أحب أن أقف في الفسحة عند الباب الخلفي للباص حتى أتمكن من الانتباه إلى حركة الناس في الحافلة أو حركتهم في الطريق وحتى أتمكن من النزول بسرعة عندما يتوقف الباص.

في هذه المرة كالعادة وقفت في آخر الباص، وعندما انطلق الباص ووصل إلى الموقف الذي يلي محطة الانطلاق، انفتح الباب الخلفي وصعد منه الشاب ومعه أحد أصدقائه، كنت مستديرة بظهري إليهما وكانت جرزة شعري الأشقر الطويل في مواجهتهما. كأنا صامتين ثم سمعت صوت أحدهما وقد

تقصد أن أسمع الكلام.

-شعرها جميل.

لم يرد عليه الشاب.. وربما نظر في وجهه بغضب

-ما رأيك أن أشدها من شعرها، كأنما ربطت شعرها بهذه الطريقة.. ليشدها أحد منه. الجملة وصلت إليّ كاملة فشعرت بالتأهب والإثارة وتمنيت أن يفعلها أحدهما ويشدني من شعري. وقد استقام جسدي في انتظار الخطوة التالية ورهفت أذناي ونهداي.

-ما رأيك أن أشدها من شعرها، أعاد صاحب الاقتراح الكلام ثانية.

-إياك؟

-لن تتألم كثيراً، وربما لن تمانع.

-لا تفعل.

إنها تسمع ولو كانت تمانع لغيّرت مكانها.

وكأن شيئاً خاصاً وغريباً أن تسمع من يقرأ أفكارك ويحاول معك شيئاً أنت تريده وتنتظر منه أن يفعله، وقد تسمرت في المكان منتظرة النتائج ولأثبت للشاب المتردد كيف تتكوّن المبادرات وكيف يتم صنعها.

بعد دقيقة من الصمت والترقب والانتظار شعرت بكف تقبض على شعري فانتبهت للخطوة التالية، يبدو أن كفاً أخرى منعتها من الشد، غير أن الكف الأولى كانت مصممة، ثم تابعت الكف الأولى مبادرتها وشدت بقوة فتراجع رأسي إلى الخلف ثم استعاد مواقعه ثم توقفت للحظة حتى أختزن انفعالات الحالة الطارئة، ولأستدير إلى الوجهين الخاطئين، ثم لأرفع يدي وأنهال بصفعة قوية على وجه الشاب الذي لم يغامر بشعري، ولأستدير بعدها ثانية كما كنت في وضعيتي السابقة دون الانتباه إلى رؤوس الركاب التي استدارت جميعاً لتتعرف على الخد المصاب بالإحمرار.

عندما توقف الباص وكان ذلك قبل محطتين من الوصول إلى حينا وانفتح الباب الخلفي، نزل الشاب وتبعه الآخر مستغرباً، وكانت بيني وبين نفسي وقفة استغرقت المسافة الفاصلة بين محطة الباص التي نزل فيها الشابان بشكل مفاجئ، والمحطة التي تلتها، تساءلت فيها لماذا تقصدت صفع الشاب الذي بدأ يثير اهتمامي ولم أصفع الشاب الذي شدني من شعري. ربما لأن الشاب الأول لم يفعل ذلك، لذا أثار غضبي ففعلت ما فعلت، ربما لأنه سمح لشيء طارئ أن يعتدي علي، وكان ضرورياً أن يشعر بأنني أخصه وعليه أن يمنع صديقه أن يفعل، ولكن لماذا أضع المحاذير والأسئلة وقد كنت أرغب أن يحصل الذي حصل وكنت في حالة انتظار له، لكن الأدهى والأمر في هذه الحالة هو لماذا ارتفعت كفي وهوت، وعلى وجه بدأ يثير مخاوفي

وانتباهي، هل عاودتني حالة الجنرال، وهل يمكن لشاب مثله في رتبة عاشق مذعور أن يحب جنرالاً. مثلي. لذلك داهمتني الوحدة والأحزان، وشعرت بالارتجاف والبرد، وصرت مثل شيء قاس وحزين.. وربما مثل جنرال فقد آخر جنوده وقلاعه، ولم أجد نفسي إلا وقد قفزت من باب الباص الذي انصفق خلفي وتركني وحيدة على المحطة التالية. كانت ضرورية تلك القفزة في الفراغ التي داهمت نفسي بها، بعد أن شعرت فجأة أن الوقت قد حان وأنني أصبحت مدينة للشاب بتوضيح وربما باعتذار، لذلك توقفت وحيدة على محطة الباص في انتظار عبور الفتى.

دقائق قليلة وأطل الفتى في الظهيرة اللافحة، كان وحيداً، وقد فرحت لاقترابه ووحدته ووقفت أنتظر عبوره حتى يبادرني، ولكنه اكتفى بأن نظر إليّ بغضب شديد وعبر دون كلام، فلحقت به.

-توقف، إنني آسفة.

غير أنه لم يتوقف، فأسرعت خلفه وأمسكته من زنده.

-قلت لك أنني أسفة.

-أنت غير محتاجة للأسف، وأنا لم أمدد يدي إلى شعرك

-أعرف

-تعرفين؟.. لماذا إذن؟..

-لا أعرف، ربما لأنك تركته يفعل.

كنت أحب أن تبادر أنت وتشدني من شعري بدلاً منه.

-كنت تريدين أن أفعل أنا.

-من مدة طويلة وأنا أنتظر منك أن تفعل شيئاً

-أنت غريبة مثل لون عينيك، وكنت أخاف منك

-والآن؟

-ما عاد فيك شيء يخيف.

-ماذا تقصد.

-عندما يفعل أحد ما فعلت في الحافلة يكون ضعيفاً وتافهاً ولا يخيف أحداً.

ثم تركني ومضى مستعجلاً. وبدأت أفكر عندما يفعل أحد ما فعلت يكون ضعيفاً وتافهاً ولا يخيف أحداً، وأحسست بالكلام. بصدقه وبالصراحة الجارحة فيه، وأنا أتابع الطريق إلى البيت.

في الليل، جلست على السرير وحيدة أفكر، خلعت ثيابي كلها وتابعت التفكير، تفقدت جسدي، وتذكرت الشاب وكلامه ثم مشيت إلى المرآة، وبعدها إلى دفتر المذكرات، وكتبت على صفحة خاصة، هذا الشاب خطر ولا يستحق الحب، ثم مزقت الصفحة وقررت أن أتابع الاهتمام به وأنا أقلب كفي التي ما

زالت تحتفظ بذكريات خده.

في اليوم التالي كان ينتظر على موقف الحافلة، وكنت في طريقي إلى المدرسة صباحاً، فاغتبطت لمشاهدته، لكنني فجأة قررت تجاهله ومتابعة الطريق ماشية. وقد حرصت على إمساك جسدي حتى لا يخرج علي. ويلتفت إليه، وقد أعيتني هذه المحاولة التي بذلت من أجلها جهداً واضحاً، وبعد أن شعرت بأنني ابتعدت مسافة كافية وأفلتت جسدي وظهري من نظراته، أخذت نفساً عميقاً، وأخرجت منديلاً ورقياً ومسحت اللهات عن قلبي ومشيتي وتابعت الطريق، ورغم ذلك وعندما انتبهت لم يكن في عقلي وصدري وعيني سواه، كأنما كنت ذاهبة إليه وليس إلى المدرسة.

لماذا شعرت فجأة أنني أحبه، ألأنه اعتبرني ضعيفة وتافهة، لو أنه اعتذر إلي ودمعت عيناه كما يفعل المحبون مع حبيباتهم لكنت ازددت تماسكاً وشموخاً، لماذا أحس بأنني فتاة أخرى غير التي تعودتها، لماذا أكون غريبة عني، وحاملة لأشكال من الضعف لا حدود لها، فعندما أصفع أحداً، أصبح متهافتة وضعيفة، وعندما أحب أصبح ضعيفة، وعندما أذهب إلى موسكو أصبح وحيدة وضعيفة، وعندما أدخل المدرسة أحس بنفسي وحيدة وضعيفة.

المكان الوحيد الذي أحس فيه بالقوة هو البيت ربما لأن والدي يحباني، لذلك هما ضعيفان أمامي، وعندما وصلت إلى هذه النهاية من التحليل والمقارنة، أحسست أن الضعف ليس شيئاً بغيضاً في كل الأحوال، وأنني قد وقعت في الجانب العظيم منه. في الجانب المؤدي إلى الحب، وقد اغتبطت لذلك فرفعت الكتب إلى صدري وضغطت، وقد تندت عيناي من الإحساس بجمال الطريق، والأشجار.. وحركة الناس والسيارات.

أيام مرّت وأنا أتجاهل الشاب، وأزداد اهتماماً به وأنا ذاهبة مشياً إلى المدرسة، لم أحاول استدراجه ليلحق بي رغم علمي أنه يفعل، وأحس به خلفي. وها أنا أمشي لأعبر الحديقة الكبيرة الفارغة وحيدة ومضطربة، كأنما لا يوجد خلفي شاب أعرفه وتنتابه رغبة موجعه في أن يشدني من ربطة شعري.

في الأمسيات وعندما أكون وحيدة كانت كفي تستحضر وجه الشاب كأنما لتعانقه وتعتذر إليه عن الصفعة التي اقترفتها بحقه ولأن كفي تعرفت إلى وجهه، قبلي، لذلك كانت حركة أصابعها تزداد نزقاً وعصبية عندما أفكر به أو أمر قربه، لكأنها تعيش إثماً خاص بها، وتود أن تقدم اعتذار كافياً إليه لتجعله ينسى.

في حرب التجاهل وخلال مشوار العودة إلى البيت بعد الانصراف من المدرسة، كان واقفاً على الرصيف الثاني مقابل باب المدرسة، انتبهت إليه انتباهاً خاطفاً وانعطفت لمتابعة

الطريق، مررت قرب بائع الفطائر، كان الدكان خاوياً. والسيارات تعبر بنزق، والشارع خاو، ولم أكن أعير ذلك انتباهاً، وأنا أقطع الطريق إلى باب الحديقة العامة، الواسعة والعظيمة، والتي تشبه مقدمتها وباحتها، حديقة قصر الشتاء، هذا ماقالته أمي نقلاً على لسان خبير روسي تعرفه. وقد بدأت بعد هذا الكلام أنتبه لجمال الحديقة وأحس بها، وقد ازدادت محبتي لها عندما صرت أشعر أن أحداً يتبعني فيها، الحديقة أيضاً خاوية، لا أدري ما الذي يحصل في المدينة، يقولون: المعارضة التي تسمي نفسها أصولية تتحرك وقد قامت بقتل عدد من الناس لاحراج السلطة. وربما لترك الحديقة بدون بشر، وقد نبهني والدي إلى ذلك وطلب مني الحذر، لكنني لا أعرف كيف يمكن للإنسان أن يكون حذراً، كيف يمكنه أن يركض من باب المدرسة إلى الحافلة دون أن يتلفت، وكيف تنطلق الحافلة مثل قطة مذعورة دون أن تنتبه للأشجار والبشر العابرين.

ثم أن المرور في حديقة فارغة ليس أمراً سيئاً، لكنه يغري بالمخاوف، هل يخطر ببال الأشجار مثلاً أن تخطف فتاة وحيدة مثلي وتزرعها في الأرض لتزداد الخضرة في الحديقة، وهل كانت الأشجار فتيات وحيدات مثلي، ثم اختطافهن بحسن نية وغرسهن. الحديقة الخاوية تغري بالتفكير والانتباه إلى ضربات الحذاء على الأرض الإسفلتية الخشنة، وهذا الإصغاء الشديد الذي أحاوله حتى أحس بالشاب الذي يتبعني ولأعرف هل يزداد اقتراباً أم ابتعاداً عني.

غادرت باب الحديقة الثاني، وعبرت شارات المرور باتجاه رصيف شركة الكهرباء، واجتزت مبنى الشركة إلى الرصيف الثاني عند جسر سكة الحديد.

لماذا يتكرر ذكر الأرصفة في الكلام، ربما لأن الرجل وقع على الرصيف بعيداً.

كنت أمشي على الرصيف، وعلى بعد عشر خطوات. كان رجل سمين يمشي بعصبية وعلى وجهه نظارة ثم فجأة وقفت قربه سيارة نزل منها إثنان واحد أخرج المسدس وأطلق النار، والثاني كان خلفه يتلفت إلى الجهات، ألا توجد عشر خطوات أخرى على الأرض تمنع واحدة مثلي من الإبتعاد عن القتل مسافة كافية تمكنني من تجاهل الجسد وحركة القتلة والسيارة. ثم انصفقت النوافذ وفغرت الشوارع أفواهها من الدهشة وفرغت. سوى مني ومن الجثة التي كانت يد صاحبها تمتد ليس إلى صدره الذي ثقبته الطلقات ولكن إلى النظارة التي سقطت عندما وقع بجسده السمين على الأرض، لكن لماذا ترك دمه وبحث عن نظارته ربما، ربما ليرى الجناة، فالضحية كما شاهدت في فلم أمريكي مأخوذ عن قصة يابانية. تظل مشغولة بقاتلها، تريد أن تختزن صورته ونظراته لسبب واحد حتى تبادله عن بعد الشعور بالاحترام والتبجيل، والرغبة في المجاورة والتعايش المشترك. غير أن حماستي في

التحليل لم تعجب والدي فضحك من كلامي بقوة اربكتني وأشعرتني بأنني الضحية، ودون أن ينتبه والدي إلى قلق عيني، تابع موضحاً موقفه فقال:

هذه العلاقة تنفع كثيراً في السياسة ويحرص عليها الأمريكيون وهم يرغبون بقوة أن يبادلهم ضحاياهم الاحترام والتعايش، غير أنني انزعجت من والدي وصرخت في وجهه، ولكن الذي حصل في الفلم يناقض ذلك تماماً، كان القاتل في الفلم يابانيا وكانت الضحية انكليزية، وكانا يحبان بعضهما وقد جاءت الأوامر للياباني فقتل الانكليزي بعد أن بكى من أجله طويلاً.

-إنهم يجعلون القتل أمراً جذاباً وضرورياً، ذلك هو الفن العظيم.

أحسست بأن والدي ما زال يسخر، ثم أخبرني: لا يوجد بشر لا في اليابان ولا أمريكا ولا تحت الأرض، يقتلون كما يقتل هؤلاء، والمحزن في الأمر أن القاتل لا يحترم ضحيته ولا يكن لها أية مودة وهو مستعد من أجل ما يحصل من معتقدات أن يكرر القتل ثانية وثالثة للضحية ذاتها، ثم غامت عيناه، واختنق صوته، الرجل الذي وقع أمامك صديق لي، وهو دكتور في كلية الطب واسمه (يوسف اليوسف) ثم صمت طويلاً وقال: لا يوجد شيء يستحق القتل سوى المعتقدات التي تحض على القتل.

رجفتان ثلاث رجفات وكما يحصل في السينما تماماً ويد ممدودة بحثاً عن النظارة وصدر مثقوب، ودم، وفتاة واقفة ربما على بعد عشر خطوات، وعالم فارغ، وعينان تكادان تقفزان من محجريهما من الهول والمفاجأة. ثم جاءت قبضة وقبضت زندي بقوة ودفعتني فاستجابت قدماي وجسدي وتحركتا رويداً وانحرفتا قليلاً عن الجثة، وعندما انسدلت كفه إلى كفي بدأنا نركض أسرع من لهاثنا. وعند منعطف المشفى، تحت الأشجار الكثيفة الغامقة وقفنا وتبادلنا النظرات، ثم أمسكت بكفه ووضعتها على نهدي الأيسر، وقلت له انظر إلى قلبي.

-أنت شديدة الانفعال.

-ليتنا أخذنا نظارة الرجل.

-هل تعرفين لون القميص.

-أي قميص.

-الذي يرتديه الرجل.

-عندما حاول أن يسحب يده أمسكت بها بعصبية ووضعتها مرة ثانية، وقلت:

-سأقع من شدة الانفعال.

-حاولي أن.

-ليتني أقعد على الأرض، ثم أطلقت سراح يده وقعدت.

-ألا تخافين.

-ما دام الإنسان يموت هكذا، فمن أي شيء سأخاف.

-وفجأة أمسك يدي وشدني إلى الأعلى وتابعنا المشي، وكفه تعبر قرب كفي ولا تمسكها، ربما كان يفكر أيهما الكف التي صفعته، ترى هل يفعلها وينسى الجثة لينصرف إلى هذا الأمر.

إنني وأنا أسير قربه محاولة أن أضبط خطواتي على خطواته، منتبهة إلى حركة نهدي، وقد حجب القميص ضوءهما.. أنني وأنا أفعل ذلك توقفت عن التفكير تماماً... فقط صوت الطلقات كان يحز صدري ويعيدني عنوة إلى الرجل وحركة أصابعه باتجاه النظارة التي ما كان لها أن تفعل شيئاً لتنجده به..

لذلك غامت عيناي بالدنيا.. وبدأت ذقني تهتز بمفردها، وحتى لا يفضحني النشيج ويظهر ضعفي قربه.. ركضت سريعاً سريعاً... حتى وصلت البيت والتفت إلى جهته. وعندما لمحته.خلفي فتحت الباب وأغلقته بقوة...

في اليوم الذي أمسكت به كف الشاب ووضعتها على نهدي ليتعرف على إيقاع قلبي... في ذلك اليوم دخل إنسان سمين عصر الموت الواسع المهيب، دون أن تمكنه المباغتة والطبيعة من مشاهدة ظلال قاتليه. وفي الآونة ذاتها دخلت عصر الحب من بابه العجيب المفتوح على الغرابة والمفاجآت، ربما روح الرجل وقد تسربت إلي من ثقوبه منحتني طاقة أن أحب وأركض وأبكي وأتذكر، وأقعد على الأرض وأرفع نهداي إلى السماء وأنا أتذكر الكف التي تجاوز كفي ولا تلامسها. ربما لأنني دخلت وحيدة وحيدة، كان ضرورياً أن أحتفي بوحدتي حتى آخرها... فرؤية الموت دفعتني للمزيد من الوحدة، والموت والوحدة دفعاني للتخلص منهما معاً، ولم يكن هذا ممكناً إلا باستنفار الجسد وملامسة عناصر الحياة والاستجابات فيه.

كثير من الرجال عبروا ذاكرتي- ممثلون في السينما والتلفزيون، وسياسيون وأساتذة وزملاء في موسكو، كثير منهم وفي وضعيات من التلفت والانتباه والاستثارة، عدا وجهه، وجه فتاي.. غير أنني كنت محتاجة إلى نفسي وانفعالاتي محتاجة إليهما بقوة. لذلك تابعت الطريق بدونه حتى تعالت شهقاتي.. ربما تقصدت أن لا أرغم ذاكرتي على البحث عنه حتى أوفره للأيام القادمات دون جثث وثقوب ويد ممتدة ورصيف ليكون معي تاماً مكتملاً وليس مجرد ظل أو خيال، وربما لأنني أحب فيه أن يكون أكثر من جسد عار وأعضاء مستجيبة، أحب فيه إضافة إلى جسده، صمته البليد، وكلامه الجارح، ومخاوف كفه من أن تبادر إلى يدي فتلمسها، أحب انتباهه إلى عيني وخوفه من تبادل البرق معهما..

غير أنني وعندما التفت إليه وانتبهت إلى وجهه عندما كنت

في مواجهة الباب أحسست بأعماقه ومخاوفه تامة كاملة، كنت أنظر إليه نظرة إعتذار مركّب، فيه صلابة وفيه إلتماعة حزن ولم يكن ممكناً لي أن أنظر في الأمور وأحللها بهذا العمق لو لم أفعل ما فعلت وأتوج نفسي بوحدتي وشهقاتي وبعدها لأضبط إيقاعات روحي وصدري وأبدأ بعدها التفكير والتأنيث والتذكير.

هل الحب مذكر أم مؤنث.

الموت أيضاً هل هو مذكر أم مؤنث.

والدم... هل هو مؤنث أم مذكر، ما دام يصيب الجميع.. ويسيل من الجميع... لماذا خطرت ببالي هذه المقارنات.

فالمرأة تنزف برهة الحب الأولى.. وبرهة الولادة، والرجال ماذا يفعلون... أجاب أبي عندما سألته:

-ينزفون أيضاً، على الأرصفة وفي الأسواق، وفي الأحزاب والمؤسسات.. ألم تشاهدي الرجل.. وارتطام رأسه ونظارته البعيدة.. وثقوب صدره.

عندما فكرت في الرد الذي داهمني به أبي تذكرت أنني عندما تحدثت إليه عن الرجل، لم أذكر له ارتطام رأسه، فكيف أعاد بنفسه تصور المشهد وتحليله وتركيبه مرة ثانية.. يبدو أن رأس الرجل ارتطم على الأرض فعلاً، وإلا ما كانت نظارته اندفعت بعيدة عنه كل تلك المسافة، ويبدو أنه أحس بابتعادها عنه فامتد بيده إلى جهتها دون أن يتمكن من استعادتها.

لقد انتبهت إلى النظارة، إلى الأثر، ولم أنتبه إلى الفعل الذي طوّح بها أن رأس الرجل وحده يتذكر ذلك جيداً.. ورأس أبي أدرك ذلك. لذلك صرت إذا استعدت المشهد في ذاكرتي لا أستطيع إلاّ أن أرى الرجل في ملامح أبي وهيئته. وبدأت أحس بالإرتطام العنيد وقد أصاب رأس أبي فأشهق من الخوف عليه... وفي مرات وضعت رأس والدي على صدري وبدأت أتفقده وأتفقد تدرج الشعر الأبيض وتناسخه في رأسه.. ثم شرحت له الأسباب والدوافع.. فصار ينصاع لذلك كلما طلبت منه أن أفعل.

-أخاف عليك، قد يكون رأسك مصاباً دون أن تعرف.

-لو أنك تعرفين؟.

-ماذا؟

-لا يوجد فيّ شيء غير مصاب..

لوالدي صديق في عمر طلابه، تخرّج من الجامعة حديثاً، يكاد يكون في الثلاثين من عمره، وهو موظف في البنك العقاري.. ويتابع دراساته العليا في كلية الآداب ويشرف والدي على (رسالته في النقد الأدبي) وقد استلم عدداً من مناصب الحد الأدنى في اتحاد الحرفيين، هذا ما قاله والدي عنه وقد صرّح والدي أنه يحب هذا الشخص الذي يعتبره تلميذاً وصديقاً بآن واحد، وقد أثارتني حفاوة والدي بتلميذه وصديقه، فحاولت أن أنتبه إليه في الفترة ذاتها التي كنت منشغلة فيها بالشاب

وقد انتبهت إلى صديق والدي لأفهم طبيعته لم يكن وجهه وشعره الجعد يثيران النفور، لكنني وبعد عدة كلمات ومجاملات ومبالغات صدرت عنه، أحسست بالامتعاض، وقد صارحت والدي بذلك.

-لماذا التسرّع في إطلاق الأحكام، والشاب يحترمك، وقد وعدني بتأمين قرض من المصرف العقاري حتى أعيد تأثيث غرفة نومك.

-لتذهب غرفتي إلى الجحيم.. وأقترح أن تنصح صديقك وتلميذك بأن يضع نظارة على وجهه.

-لماذا.

-لأن نظراته لا تعجبني.

-وماذا تفيد النظارات في هذه الحالة.

-لا أعرف، ربما لا تفيد.

لا أدري لماذا كنت حادة وقاسية، في الحكم على الشاب... ربما لأنني كنت أعيش فترة حاسمة وعصيبة.

-ألا يمكن أن تنتبهي إليه أكثر، إنه يحبك وقد صارحني بذلك.

يبدو أن والدي لم ينتبه إلى عينيه أبداً، لذلك أوقعه في فخ الكلام والمجاملات.

-ما رأيك، تابع والدي الكلام.

-في أي شيء.

-في الانتباه إليه...

-صورة الرجل الذي ارتطم رأسه على الرصيف تمنعني من الإنتباه.

-أمر عجيب أن يصدر عنك هذا الكلام.

-لقد قرأت كل ما في مكتبتك من كتب بالروسية والعربية ويحق لي أن أفكر على طريقتي الخاصة.

-ليتك تعرفينه عن قرب.

-ليتك تعرفه أنت.

-هل تعرفين.. خلال الأزمة التي عاشتها المدينة كان يأتي إلى الجامعة خصيصاً لمرافقتي إلى البيت، كان يقول لي أخاف عليك منهم... وكان يرافقني ويدخل معي.. ويظل معي إلى ما بعد الغروب ثم يمضي.. وعندما شرحت لأمك مواقفه بدأت تحتمل حضوره على مضض رغم أنها في البداية لم تحتمله على الإطلاق.

-لماذا لا يكون العكس.

-لم أفهم.

-ربما كان يخاف هو أن يذهب وحيداً إلى بيته فحاول أن يقنعك بأنه يخاف عليك.

-هذا غير معقول.

بعد أيام جاء أبي إليّ وقال.. معك حق يخاف على نفسه أكثر مما يخاف علي، ورغم ذلك ما زلت أحبه.

-أن تحبه هذا يخصك، أما أن تخطئ في تفسيره فهذا غريب من رجل مثلك.

-أنت تبالغين.. ثم أن أكاذيبه ليست مؤذية.. وقد طلب يدك مني.

-يدي أنا.

-هل تعتقدين أنه يمكن أن يطلب يدي أنا أو يد الباب، قال أبي ممازحاً.

-ربما قصد أن يطلب يد الباب.. قد يكون البيت قد أعجبه.

-هو معجب بك أنت...

-معجب بي.. يا للحظ.

-قلت له أطلب يدها منها.. وعندما توافق يمكن أن نتحدث في الأمر.. لكنه أخبرني أنه يخاف منك.

-عندما يتوقف عن الخوف أخبره بأنني غير موافقة.

رغم إجادتي الحديث باللغة الروسية، كنت أحس بالرغبة في مصارحة أبي أكثر من أمي... وكانت أمي تحس بذلك فتزداد غضباً ومرارة وينعكس ذلك على علاقتها بأبي.

أيام مرت وأنا ألتقي بالشاب.. تحدثت له فيها عن صديق والدي.. وطلبه، ليدي وموقفي منه.. وعندما ذكرت له اسم الشاب انتبه إلي.. وقال أعرفه عن بعد.. حضرت له بعض الندوات على مدرج الجامعة، كلامه مثير للانتباه... كذلك بدايات الكرش المبكر عند حزامه.. يحس من يستمع إليه بأنه رجل مؤهل لأن يكون ذا شأن...

-والدي تعرّف إليه في المقهى.. ثم في الجامعة.. ثم حصل بينهما الحب الكبير بالمناسبة لم تقل لي ما هو اسمك.

-اسمي عامر (الصائب)... وأنا طالب في كلية الهندسة في السنة الأخيرة.

-أنا فالنتينا بالروسي.. وعلياء بالعربي.. وكنيتنا (السمني) والدي له اسمان.. عواد اسم الولادة.. وشامل اسمه الذي اختاره لنفسه وأمي اسمها كاتيا وهي روسية، وأنا أعيد تقديم الشهادة الثانوية لأدخل في الجامعة وكان من الواجب أن أكون في السنة الثانية في كلية الحقوق ولي جرزة شعر وعينان كل واحدة بلون.

-ولك صديق اسمه عامر.

-ولكنه لا يخبرني شيئاً عن نفسه، وأنا وبعد أن وضعت يده على صدري لا أعرف سوى اسمه.

-هل تذكرين لون القميص.

-القميص الذي كنت أرتديه.

-قميص الرجل الذي

-أنت واسع الخيال.

-لذلك سأتحدث عن نفسي وأهلي...

-إنني أسمع.

والدي يحمل شهادة الدكتوراه في العلوم الهندسية، وهو يُدرّس في الكلية التي أدرس فيها، وقد درس وتابع الاختصاص في ألمانيا الديمقراطية، وعندما عاد.. تزوج من أمي.. وهي ابنة أسرة هامة في الماضي ولها أملاك.. والدي لم يكن عضواً في أي تنظيم حزبي.. غير أن والدتي وبعد أن تصاعد المد الديني وتصاعد الخلاف الزوجي بينها وبين والدي قررت مثلها مثل طبقتها الاجتماعية الارتداد.. فتحولت من سيدة مجتمع وصاحبة صالون يجتمع فيه رجالات العلم والسياسة في المدينة للمناظرة والحوار والتسلية إلي امرأة من نوع آخر، فارتدت الثياب الرمادية المحتشمة وتوقفت عن استقبال أحد... وقد أربك هذا الأمر والدي وبخاصة بعد أن عاصر التحولات الغريبة في البلد.. فكان ضرورياً أن تنشأ بينهما القطيعة، ولأن البيت الذي يقطنان، يمتلكانه مناصفة ولأن والدي تابع تحصيله الدراسي في ألمانيا فقد اختار الحل الألماني للمشكلة وبنى جداراً قسم فيه البيت إلى بيتين ليحول بذلك دون أي اتصال يمكن أن يتحقق مع والدتي.. وبقيت أنا الوحيد الذي أتمتع بسلطات إستثنائية لا يستطيع الجدار أن ينال منها، كنت أستطيع أن أنتقل عبر البابين بين الشطرين الغربي والشرقي.. وقد مكنتني حرية الحركة تلك من نقل رغبات ووجهات نظر كل طرف للطرف الآخر وخاصة أن والدتي قد احتفظت بالمطبخ كاملاً في القطاع الذي يخصها وعلى ذلك استمرت في فرض شروطها وتقديم الوجبات من خلال فتحة في الجدار.. وقد اقتنع كل واحد منهما بالطرف الذي يخصه ولم تحصل أية ارباكات ولا عمليات تسلل سوى تلك التي أقوم بها بين الطرفين المتنازعين.. لنقل بعض الرغبات ووجهات النظر...

ورغم ميول والدتي الغربية فإنها كانت تتسلل في الليل إلى الجدار وتضربه بقبضتها وتبكي وخدها على حجارته.. مثلها تماماً مثل الألمان الشرقيين... ويخيل إلي أنها ما زالت تحب والدي رغم كراهيتها الشديدة لأفكاره ومعتقداته وهي في ليال كثيرة عند آذان الفجر ترفع كفيها بالضراعة مثل رابعة العدوية وتبدأ بالدعاء على حلف وارسو والسوفييت دون أن تضع في اعتبارها أن أمكِ واحدة منهن، لذلك فأنا أعتقد أن حبنا مثل حب روميو وجولييت محفوف بالمخاطر والمنازعات المحلية والدولية

والجدران.

-تقول حبنا.. إننا لم نزل في مرحلة الصداقة.

-بعد كل ما كشفت لك من أسرار تقولين صداقة.

-إن كنت تحب أن تطلق عليها اسماً آخر فلا مانع عندي.

-يا للمعجزة لقد بدأت تباشير الانفراج الدولي، ثم أمسك كفي، وذهبنا معاً إلى الحديقة القريبة.. وبحثنا عن كرسي فارغ.

رواد الحديقة في غالبيتهم من طلاب الجامعة بأقسامها المختلفة.. وعلى كل كرسي قعد اثنان، شاب وفتاة.. يرتدون الألبسة الجامعية الموحدة.

-تعرفين رغم قرب الحديقة من حينا.. لم أكن أنتبه إليها، كأننا في كرنفال...

-انتبه إلى الرواد.. هل تعتقد بأن الحب هو الذي أحضرهم إلى الحديقة.

-لا يمكنني أن أعرف بسرعة..

-معك عشر دقائق.

-عشر دقائق؟

-هل تعتبر المدة قليلة.

-أبداً.. عشر دقائق تكفي لقيام حرب...

-يا لخيالك يا أخي.

-الخيال ضروري.. حتى يتمكن الإنسان من الانتباه إلى النظارة عندما تسقط بعيداً عن يد الرجل الممدد على الأرض.

-كل هذه الأسى من أجل سؤال.

-الأسئلة شيء سهل.. الأجوبة هي المعضلة.

-الزمن بدأ يتحرك لغير صالحك.. ثم ركزت علياء أنظارها على الساعة.

-عشر دقائق دون كلام ودون أن أنتبه إليكِ.

-ودون أن تنتبه إليّ.

-هل تقدرين على ذلك.

-هل تقدر أنت

-هذا أمر سهل

-أنت ملعون وضربته على صدره، فوضع يده فوق يدي.. وأعادها إلى حضني... ونظر إلى الساعة وقال: هل نبدأ.

-نبدأ.. كان وجهي ملتهباً بنار لا أعرف مصدرها وبدأت متابعة المشهد دون أن أرى شيئاً.

بعد مدة من الانتظار الطويل.. الطويل.. نظر إلى ساعته وقال: لقد انتهى الوقت.. وأنا جاهز لإعطاء الجواب.

-لم تعد عندي رغبة للمتابعة.

-الوقت ما زال مبكراً على الأحزان.

-لست حزينة.. لكن الأجوبة توحي بوجود امتحان.. وأنا لا أرغب في ذلك. ثم مرت فراشة بيضاء، وتبعتها فراشة أخرى، وعلى الكرسي المقابل نهضت فتاة محجبة بعصبية ومضت وبقي صديقها وحيداً، لم يفعل كما فعلت الفراشة الثانية وهي تتبع الأولى.. ثم مر حارس الحديقة.. وذهب إلى صنبور الماء وفتحه.. وبدأ الرذاذ يتناثر من مرشات خاصة فوق العشب.. وعلى أطراف البحيرة المدورة وسط الساحة.. ثم انتبهت إلى أصوات العصافير كانت يدي ما تزال منتظرة في حضني دون حركة.. كأنما تود.. وكان ينظر إلي وأنا أتلفت إلى غير جهته، ما زال الوقت مبكراً على الأحزان، تذكرت كلمته.. وقررت أنني لست حزينة، غير أن الرجل العجوز القاعد بعيداً.. بعيداً يشبهني، لذلك نهضت.

في البيت كانت أمي تعد طعام الغداء.. لم يكن للوجبات التي تحضرها طعم أو رائحة، كثير من الأطعمة الحلبية التي نأكلها في بيوت المعارف والأصدقاء محذوفة من برامجنا الغذائية.. الخضار المسلوقة مع اللحوم المقلية والمايونيز والشوربات المختلفة تشكل معظم وجباتنا في المساء والصباح، كان بوسع أمي أن تتعلم صناعة الأطعمة المحلية لكنها لم تكن تريد، فما دامت تشعر بوجودها منقوصاً في المجتمع كونها ليست منه، لذلك كانت تريد أن تجعل بيتها روسياً من ألفه إلى يائه حتى تشعر باكتمال حضورها وشرعيته وربما كان لها الحق في ذلك غير أنني ووالدي كنا ندفع الثمن ونأكل الطعام مثل بشر معلقين في الهواء، وقد سعينا معاً بالاعتماد على الملح والتوابل للالتفاف على إرادة أمي وتقريب المسافة من خلالهما بين طعامنا المحلي وطعامها، وكانت تتجه إلينا وتنظر بغضب إلى صحن والدي وتخطفه من أمامه وتزيل بطرف السكين الأملاح والتوابل وتعيد قطعة اللحم إليه وهي تقول بالروسية.

-ذوقكم ضعيف.

وكنت أقول لوالدي.. لا تشغل بالك، يبدو أن ماركس ولينين لم يتحدثا عن التوابل والأملاح ودورهما المؤثر في صناعة التاريخ.

-وينتبه والدي.. ودون أن يفهم قصدي يرد علي غاضباً، وما دخلهما بالملح والتوابل.

هذه المرة لم أتوقف طويلاً في الصالة، ولم أنتبه إلى الطعام وطبيعته... مباشرة دخلت إلى غرفتي وأغلقت الباب.. وألقيت بجسدي على طرف السرير، كنت نزقة ومتعبة.. كان

اللقاء غنياً ومربكاً، فيه تفاصيل غريبة ولغة خاصة... صحيح أنني نهضت كأنما كنت غاضبة، لكنني لم أكن كذلك، وقد تبعني ومشى قربي ترى هل انتبه مثلي إلى الفراشتين وإلى الفتاة المحجبة الغاضبة.. وإلى العجوز الوحيد.. ربما انتبه أكثر مما انتبهت، مثلما فعل والدي وانتبه إلى ارتطام رأس الرجل على بلاط الرصيف.. عندما استعيد مشهد الفتاة الغاضبة أتساءل هل كانت تبكي، ربما لمح هو ذلك أكثر مني.. عندما تنتبه الفتاة إلى فتاة أخرى تبكي، لا يثيرها ذلك، تشعر نحوها مثلما تشعر نحو فتاة تأكل أو تقرأ أو تقوم بتنظيف البيت.

يبدو أن الفتيان يمتلكون مشاعر مختلفة، فيتنبهون أكثر إلى انفعالات المرأة وتقلبات مشاعرها، لكن لماذا لم ينتبه إلي.. لماذا لم يحاول معي.. كان يستطيع أن يتكلم.. أن يترك يده في حضني.. أن يجيب علي دون أن أطرح الأسئلة، فبعد عشر دقائق من الصمت والانتباه لم يقل أحدنا شيئاً، ثم نهضت فجأة.. ومثلما نهضت فجأة ومضت في رأسي فكرة.. الذي يحب عليه أن يتوقف عن هذه الأوهام.. لذلك نهضت ثانية وذهبت إلى المائدة وشاركت بحماسة في تناول الطعام... وقررت رغم قرقعة الملاعق والصحون.. ورغم صمت والدي ووالدتي.. أن أنصرف لتحقيق رغباتي، وأن أعطي ما لقيصر لقيصر وآخذ من قيصر ما هو لي.. التفلسف يقتل الحب.. كنت جائعة.. وكان الطعام في متناول يدي.

رواد الحديقة وبعد عشر دقائق من التأمل أحسست بهم.. لم يكن يشغلهم الحب.. الجوع هو الذي يشغلهم وعندما أدركت ذلك توقفت عن الأسئلة.. وتوقف عامر عن الإجابة.. وما دام الأمر كذلك أي عيب في الجوع.. وما هو الذي يميزه عن الحب... كل منهما يحمل الآخر إلى ذروته.. كل منهما يحمل الآخر ليطوح به.. ثم انتبهت إلى أمي وقلت لها: كان الطعام لذيذاً..

-دهشت أمي: لم أسمع منك هذه الكلمة أبداً.

-علياء معها حق.. طعامك اليوم لذيذ، تابع أبي الكلام

-ماذا تقصد.. هل كان رديئاً في الأيام السابقة؟

-الذنب ذنب فاليا لأنها لم تكن تنتبه، أجاب والدي ممازحاً.

-وأنت أين كان عقلك، ردت أمي على والدي بعصبية.

-نظرت في وجهيهما بحزن.. ما داما لا يحسنان الكلام إلى بعضهما فليصمتا.. فليصمتا تماماً، كلمة واحدة تكفيهما طوال العمر، أن ينطق الواحد باسم الآخر مرة واحدة عندما يموت، ليتهما يبنيان جداراً مثل والدي عامر، عندها سأحس بهما أكثر.. وسأمد لهما لساني من نافذة الجدار.. حتى أغيظهما. يمكن اقتسام غرفة المعيشة (الصالون) لتكون ممراً لكل منهما، الحديقة والمطبخ وغرفة النوم والضيوف لأمي.. المكتبة وغرفتي لوالدي.. يمكنه أن ينام في المكتبة على الكنبة، وهو

لا يمانع في ذلك، فلقد تعوّد أن ينام عليها عندما يكون مع أمي في حالة خصام.. ولأنهما في خصومة دائمة، فقد اعتاد أبي النوم فوق الكنبة، غرفة النوم التي تخصه يمكن أن نستعملها إنا وهو بالتناوب، ويمكن أن أنام في غرفة الضيوف في جمهورية أمي المستقلة.. أما الحمام والتواليت، فلا يمكن أن يكونا في قطاع أمي لأنها بعد تحرير المطبخ ستحصل عليهما لضرورات هندسية، يمكن أن يدفع والدي تعويض بدل استخدام.. وسأحاول أن يصلا إلى صيغة تفاهم.. وإذا تشددت أمي ورفضت قائلة باللغة الروسية (الحمام والتواليت بالتمام أو الموت الزؤام) فإن ذلك سيدفع والدي إلى استئجار حاملة طائرات من أحد المعسكرين ليزيح عليها ضروراته.

مساء ذلك اليوم وجهت الدعوات إلى اجتماع عاجل فِي الصالون نوهت فيها إلى أهمية المسألة وحذّرت من مغبة الحرد والتغيب، وحددت الساعة التاسعة موعداً للاجتماع حيث يكون والدي قد عاد من المقهى بعد أن شبع من الأصدقاء الذين أدمنوا عليه وأدمن عليهم.

وقد وردتني ردود مشجعة من الطرفين فيها موافقة على حضور الاجتماع، وحاولت أن أحضّر للاجتماع تحضيراً كافياً مثلما يحضر المعنيون لمؤتمر دولي.. فهذا الاجتماع، ستترتب عليه نتائج هامة، وسترسم حدود وتزال حدود، وتسلخ مناطق وتضم مناطق وسترتفع جدران ورايات وربما سينصرف كل طرف لتأليف نشيد وطني يخصه وسيكون لكل طرف علم يشير إلى بداية استقلاله عن الطرف الآخر.

بدأت الاجتماع وفي ذهني أنني أقدم خدمة جلّى للطرفين... أقوم خلالها بتحرير كل طرف من صاحبه، مستلهمة تجربة مماثلة اعتقدت أن أصحابها لديهم من الشجاعة ما دفعهم للقيام بأفعال عظيمة...

بعد أن طرحت عليهم المشروع وفردت أمامهم المخططات، الهندسية ووزعت المساحات والممتلكات، وعدت معهما بالذاكرة إلى خمس سنوات خلت، لم يستطع أي منهما أن يجعل الآخر يبتسم لمرة واحدة، ونوهت إلى وجود نقطة ضعف في المشروع من شأنها أن تحكم عليه بالفشل والخذلان، وأنهما وبعد الاتفاق على المشروع من حيث المبدأ يحتاجان من أجل الحمام والتواليت لمفاوضات خاصة يجب أن يتحلى فيها كل طرف بالصبر والجلد ونظافة المقاصد ونبل الأهداف.

عندما انتهيت قفز أبي من مكانه وأعلن موافقة غير مشروطة وأكد أنه مكتف بغرفة المكتبة وأنه غير محتاج لاستخدام التواليت إلا في العطل الرسمية لأنه سيدرب نفسه على استخدام تواليت الجامعة صباحاً، والمقهى مساء، أما الحمام فإن المدينة تعج بالحمامات العامة وهو من محبذي ارتيادها لأنها تذكره بالطفولة وأيام الحارات والأصدقاء.

لقد أذهلت أمي سرعة استجابة والدي وتنازلاته الفادحة، واكتفائه بشروط الحد الأدنى التي لا يمكن لأحد سواه أن يقبل بها، وأحسست بلؤمه وسوء سريرته وأدركت أنه كأنما يتنازل عنها هي وليس عن البيت، ثم نظرت في وجهينا نظرات أفقدتنا بهجة الانتصار وقالت بهدوء وروية وعيناها ترقصان من الغضب، أمهلوني اسبوعاً وبعد ذلك سيصلكم قراري، ثم ذهبت إلى غرفتها وأغلقت الباب.

-لماذا طلبت أسبوعاً للتفكير؟

-لست أدري.. أجاب والدي.. من عادتها أنها لا تتسرع في اتخاذ القرارات،

-هل تعتقد أنها طلبت هذه المدة لتتمكن من استشارة السفارة.

-لا أعتقد.. كان أبي يفهم موقف أمي أكثر مني، لذلك عندما مازحته بالكلام ظل واجماً.. عند ذلك أدركت أن دعابتي لم تحقق الأهداف والنوايا الطيبة التي أردتها، وإنما أذابت طبقات الجليد الكثيفة التي غطت الحقائق المرّة طويلاً.. وعندما حصل أصيبا معاً بالفزع. لذلك تذكرت كلام عامر.. أعتى الجدران تلك التي نرفعها داخلنا وليس حولنا.

-أسبوع كامل مضى وأمي في غرفة النوم لا تبارحها، وأبي في المكتبة، يصابان بالفزع عندما يلتقي أحدهما بالآخر.. ويصابان بالفزع عندما يعزل الواحد نفسه عن الآخر.

لكن الفزع الذي أصاب أمي أعمق وأشد مرارة، فالأب الكريم لديه عمله ولقاءاته بالطلاب والطالبات.. وله أصدقاء المقهى.. أما أمي فليس لها سوى البيت، والعزلة وخارطة الاتحاد السوفييتي في غرفة النوم هذه الخارجة التي كانت تتقلص وتضيع.

كان بناء الجدار مجرد فكرة لكنه ما لبث أن أصبح عالياً وشامخاً دون حجارة ولا بنائين، وحال الجدار بين أمي وممارسة أهم هواياتها ألا وهي اضطهاد والدي والقصاص لنفسها وحياتها منه.

عندما أخبرت عامر بالنجاح الذي حققته دون قصد في بناء الجدار ومخاوفي من نتائج ذلك.. أجابني: ليس الذنب ذنبك.. الجدار كان موجوداً من أيام بعيدة.. يا الله إنني أتحدث مثل العرافين وحيتان البحر، هكذا صاح عامر ثم قال:

-إن رواد الحديقة لم يحضروا بسبب الحب.. وإنما حضْروا وفي ذهن كل واحد منهم خطة لبناء جدار يليق بصاحبه.

-مثل هذا الجواب.. يحتاج لعشرة أيام وليس لعشر دقائق.

-تلك هي المدّة التي يتطلبها بناء الجدار.

ثم ضحكنا معاً.

لم أكن أُقدِّر، أن الجدار سيلعب دوراً هاماً في ذكرياتي... أول قبلة حاولناها أنا وعامر كانت على سطح بيت عامر قرب جدار، وكان رأسي متروساً إليه كأنما كنت أحتمي به، كانت القبلة عميقة خفيفة ورغم ذلك كان الجدار يشاركني هذه القبلة، وقد تقصدت أن أضغط جانباً من رأسي إليه ليتغلغل سطح الجدار الخشن إلى المسامِ البعيدةِ في رأسي وعندما انتهينا أسدلت رأسي إلى كتفه وأغمضت عيني.

ليست الجدران كلها متشابهة، جدار للقبلات يخصني، وجدار للعزلة يخص سواي.

عندما ذهبت إلى بيت عامر وطرقت الباب خرجت إليّ أمه...

-ماذا تريدين

-عامر.. موجود

-من أنت؟

-أنا فالنتينا، صديقته.

نظرت إليّ أمه نظرة قوية.. ثم خبطت الباب في وجهي، بعدها انتقلت إلى الباب الثاني.. وضغطت زر الجرس.. فخرج إليّ رجل...

-مساء الخير.

-مساء الخير.

-عامر موجود.

-ليته كان موجوداً

-لماذا.

حتى لا تعود فتاة جميلة مثلك خائبة، ثم تابع:

-أنت هي فالنتينا.

-أنا علياء، وأحياناً فالنتينا.

-قصّر ابني كثيراً في وصفك...

-شكراً.

-يمكنك الدخول وانتظاره.

-أنا مستعجلة..

-سأخبره بحضورك.

-شكراً

-مع السلامة.

أيهما يقف خلف الجدار.. وأيهما يقف أمام الجدار.. الأم أم الأب. ومن الذي يقف أمام الباب أو خلفه. أنا أم الزمان.. أم عامر.

الأم كانت جذابة وهي تخبط الباب، الأسرة كلها كانت ساحرة وشجاعة.. لم تكن أسرة عاطفية وضعيفة، أسرة بنت جدارها بنفسها، ولم تحاول أبداً أن تهرب إلى جدران من صنع أوهامها.

-كثير من أشجار حديقتنا وغراسها ذبل بسبب الحزن الذي أصاب أمي والوحشة التي جزءتها، ولم يكن والدي ينتبه لشيء، لكنني انتبهت إلى أشياء الحديقة وحاولت أن أمد يد العون للخضرة المستغربة.. وقد دفعني ذلك للدخول في مرحلة جديدة في حياتي أسميتها مرحلة الحديقة، فبعد القبلة الأولى والجدار الخشن وكرات الهباب السوداء الصغيرة وهي تتلاعب على سطح بيت عامر الواسع بعد هذه القبلة، صرت أجد نفسي أشد خضرة وطراوة وأكثر حناناً وتفتحاً، حتى خبطة أم عامر العنيفة للباب بعد استقبالها لي ودهشتها من سؤالي، لم تجعلني أحس نحوها بالقسوة، لقد تذكرت خلال الخبطة وبعدها أنني أعيش مرحلة الحديقة وأن الباب الغاضب قبل أن يكون باباً كان شجرة، حتى عندما خرج إليّ أبوه أحسست رغم صفرته وجفافه أحسست به مباركاً وأخضر مثل حديقة نسيت خضرتها داخلها، بعد ذلك شعرت أنه بوسع كل شيء أن يكون جذاباً وضرورياً دون جدار سوى للقبلات، ثم التمعت في رأسي حركة اليد الممدودة وجسد الرجل السمين المملوء بالثقوب والدم فارتعدت من الموت وهوله. لذلك هرعت إلى الحب.. إلى الحب.. وصار ضرورياً أن التقي بعامر لأصارحه برغباتي.

عندما التقينا لم نتحدث في شيء، تجولنا في الغروب والشوارع المتقاطعة... ودون انتباه أمسكت بذراعه ومشيت.

الكلام الذي لم أقله فهمه. والكلام الذي لم يقله فهمته كأنما نقلت أصابعي وذراعه ما لدينا من كلام، ثم رجعنا معاً إلى سطح بيته الواسع الرحيب.

عندما يقف الإنسان على السطح.. أي سطح ينتبه إلى السماء، خلافاً للذي يمشي على الأرض، فإنه ينتبه إلى الأرض، في السماء كانت النجوم تلتمع وكان القمر قريباً ومدوراً وشديد البياض.. سطح المنزل الواسع كان مثل السماء مملوءاً بالليل وبالأغطية البيضاء المنتشرة على حبال الغسيل في هيئة كرنفال وممرات وسراديب.

تجولنا على السطح وفي الممرات التي صنعتها الأغطية البيضاء على الحبال الممدودة واستندنا على الجدارن وترسنا رؤوسنا إليها وإزددنا لهاثاً وتعرقاً.. تطاولنا إلى بعضنا حتى تركت حلمتاي بقعتان رطبتان على صدره.. ثم وبحركة موحدة أمسكنا شرشفاً أبيض وفرشناه على الأرض وتمددنا عليه. لم أكن منتبهة إلى يدي ولا إلى يديه.. كانت الألبسة تتراجع والأجساد تتدافع ربما بتأثير من مغناطيسية المد والجزر التي يطلقها القمر على البحار والأجساد الظامئة وحبال الغسيل.. ثم شعرت به قوياً وشاسعاً كأنما لا أستطيع احتواءه، لذلك أدخلته

إليّ لأحتمي به.. ثم لم أستطع أن أمنع نفسي من الصراخ بسبب ألم مباغت ولذة عاتيه.

كنت في حالة انتباه واصغاء شديدين إلى حركة جسده وكان القمر والنجوم في عيني.. غير أنني لم أنتبه إلا لدهشة التحوّل التي أعيشها وغرابتها. مع كل حركة منه كنت أزداد استغراباً وتقلّصاً.. وازداد رغبة في اختزان الحالة حتى لا تبارحني أبداً، كان مرتبكاً وعندما ازدادت حركاته انفعالاً وقسوة.. تساءلت عن السبب.. ولماذا يكون الاستعجال، ثم رأيته ينهض ويزرر نفسه وألبسته ويتأمل السماء...

عندما نهضت أسدلت ألبستي وارتديت الجورب والحذاء. ولم أنسى الشرشف الأبيض الذي مددناه على الأرض، انحنيت إليه وطويته، ووضعته تحت إبطي وذهبت دون كلام.. بعد أن شاهدت انصراف عامر العميق للسماء ومتابعته لحركة الضوء بدهشة كأنما يشاهدها للمرة الأولى.. الرجل يشاهد الأرض عندما يحتوي المرأة.. والمرأة تشاهد السماء عندما.. عندما تعانق الرجل. والشرشف يرى الدم.

عندما سمع صوت نزولي على الدرج استدار إليّ وقال:

-هل تعرفين يا فلنتينا؟

-أي شيء؟

-أنت أعظم رائدة فضاء على الأرض.

-تقصد على السطح..

-ولماذا على السطح.

-ربما لأنني أحمل الشرشف.

-كنت منذ قليل تحملينني إلى النجوم.

-هل انتبهت إلى النجوم.

-تبدين حزينة.. انظري قليلاً.. السماء جميلة هذه الليلة.

-هذه الليلة لي.. وأحب أن أكملها وحدي...

-ما دام الشرشف معك.. لن تكوني وحدك..

عندما دخلت إلى البيت كان الشرشف تحت ابطي وكنت مثل طالبة محافظة تحمل كتبها.. كان والدي في الصالة ولم يكن منتبهاً إليّ.. وكانت أمي في غرفة نومها، ذهبت إلى غرفتي دون كلام، ورغم الإحساس الغامر بالجوع.. لم أكن قادرة على تذكر الطعام.. ألقيت الشرشف على الأرض واستلقيت على السرير... وعميقاً عميقاً شعرت بالتعب وعميقاً عميقاً نمت، بعد ساعات نهضت كأنني في بئر.. نهضت من قلب الليل وأشعلت الضوء وارتميت على الشرشف الذي أحضرته معي، وفردته وبدأت أتفقده... لامست البقع الغامضة... ثم نهضت إلى الخزانة وأخرجت المقص وقصصت الجزء الملوّن.. وطويته ووضعته تحت الفراش.. وعدت إلى السرير.. الدم بداية

الحب، ولأن الفتاة هي التي تنزف فهي لذلك تتذكر أكثر، وتحب أكثر.. ثم صرخت بعصبية.. لماذا أبحث عن الكلام الذي يجعل مني بطلة.. إذا كانت الفتاة تحب أكثر وتدفع ثمناً أكبر فماذا يعني ذلك.. هي اختارت ذلك ولم ترغم عليه.. والرجل لم يلعب دور الجلاد..

ولا مطلق النار. ولم تكن الفتاة تمد يدها من خلال الدم لتمسك بالنظارة وتراه... لقد قام عامر بعمل رائع.. رائعٍ يا أمي، رائع يا أبي، ونهضت إلى المرآة وأنا أصيح والماء الفرحُ يملأ عينيّ. ثم استلقيت على السرير وبدأت أستعيد المشهد ورغم سقف الغرفة تمكنت من مشاهدة النجوم والتماعة عينيه وحرارة عناقه ورمانتي كتفيه وهما قرب لهاثي... ثم حملتني الغبطة إلى المطبخ فذهبت إلى الثلاجة وبدأت بالتهام كل ما يقع تحت يدي من طعام.

مرات عديدة تكررت اللقاءات على سطح البيت.. لكن لم تكن ترافق لقاءاتنا الجديدة سماوات ّصافية ولا شراشف أو دهاليز بيض كالتي رافقتنا في المرّة الأولى. وفي غياب الشراشف ووجود السماء المتجهمة كنا نضطر أن نفعل ذلك مستعينين بالجدار. لذلك كانت الجدران المتعارضه تقتحم صمتي واضطرابي. جدار للحب... وجدران للعزلة والعماء، ولم تكن هذه الوضعية تتيح لأحد منا مشاهدة السماء لذلك فضلت رغم المحاذير ورغم كثافة كرات الهباب السوداء على السطح أن أستلقي على الأرض لأتمكن من مشاهدة النجوم البعيدة والغيوم المستعجلة.

في المرات التالية لم أتمكن من أن آخذ أشياء للذكرى كما فعلت بالشرشف في المرة الأولى، فالجدار لا يمكن أخذه ولا السطح أيضاً...

وكانت المناديل الورقية المشعثه تتحرك على السطح مثل نجوم كئيبة ضالة رطبة تحمل إلى ذرات الهباب مشاريع أولاد ضيعوا فرصتهم وأضاعوا مداراتهم، وكانت المحارم الورقية الخالدة تستجيب لحركة الهواء فتتحرك مندمجة بحباتٍ الهباب الصغيرة فيتحقق التفاعل وتتغير الألوان من الأبيض الفلّي إلى الغامض الرمادي، ورغم ذلك كانت ذرات الهباب ترتسم على ظهري.. وعلى ظهر القميص.

أنا أعرف أمي.. وأعرف أنها بدأت تحس بي وبالتحولات التي تنتابني ولعلها تخمن أنني أعرف صديقاً وربما لا يزعجها ذلك.. الذي يزعجها اتساخ قمصاني الدائم وتلوثها بهباب الكربون الأسود واضطّرارها بسبب عناد الهباب أن تقوم بغسل القطعة الملوثة وغليّها عدة مرات حتى تستعيد رونقها.

بعد إعلان نتائج الثانوية العامة نجحت بعلامات أهلتني للانتساب إلى كلية الحقوق بعد أن قرر السيد الكومبيوتر ذلك،

وقد لعب البرد وانشغالي بقراءة المواد المقررة دوراً في الإقلال من فرص اللقاء بيني وبين عامر. البرد... نعم البرد... أصبحت اللقاءات على السطح في أيام البرد غير معقولة. ولم تعد مخلفات الكربون والهباب الأسود وحدها في الساحة. ثم أن المتغيرات وعدم توفر المحارم الورقية في الأسواق، لعبت دوراً كبيراً في تبريد المشاعر، أصبح عامر ودون أن أعرف لماذا.. قليل الكلام.. يجيب إجابات مقتضبة على الأسئلة.. ويميل إلى الشرود الطويل.. لا يسألني عن أحوالي وأسباب انتصاب حلمتي صدري. وأنا بدوري لم أكن أقدر على كبريائي.. لذلك واجهت البرود بالبرود والشرود بالشرود.. والصمت الطويل بالصمت الطويل. وكان من حقي أن أفعل.. فعامر شاب غامض لا يمكن فهم طبيعته ونوازعه، وهو ينتمي إلى عالمين منقسمين.. عالم أمه.. وعالم أبيه. ولم يحاول أن يوضح في صف من هو.. أما إذا كان ينتمي لأمه ومعتقداتها فهو لا يقر أن تقيم الفتاة أية علاقة قبل الزواج. وعلى ذلك فهو ينظر إلى من تفعل ذلك على أنها شيء تالف معطوب، وإذا كان ينتمي لمعتقدات والده فلا بد وأن يكون أقل تشدداً في الاتهام، ولكنه وبعد أن عاصر فشل والده فلا بد وأن يكون ضد الزواج أصلاً.. والجدار الذي أقامه والده شاهد على ذلك.

لكنني وبعد أن خَبِرْت عالم والدي ووالدتي وتعرفت قليلاً على عامر وعالمه، صار ضرورياً الاكتفاء بمنجزاتي ودراستي وعدم الانتباه سوى إلى كتاب القانون الروماني للتأمل فيه وفي طبائع البشر الذين أنجزوه، وفي رأسي تضج الكثير من الأمثلة، وبخاصة حلبات المصارعة.. وهياج الناس وإصبع الإمبراطور التي تمنح الحياة والموت مستجيبة لغرائز الناس وهياجهم... وفي مرة ثانية مستجيبة لغرائز الإمبراطور ومزاجه، وممارسة الحب بين الرجل والمرأة تشبه عملية مصارعة دون جمهور ودون امبراطورية.. لذلك يخيب إحساس المنتصر بانتصاره.. ويشعر الخاسر أن أحداً لم يلتفت لدمه المهدور.. ذلك هو الحب.. والأرواح هي التي تدفع الثمن وتغرق بالدم، أيها الإمبراطور العظيم.

عندما يقرأ إنسان ما. القانون الروماني والخطابة الرومانية يصاب بلوثة البلاغة مثلي وينصرف للمقارنات والأوهام ويصنع من كل شيء نقيضاً لشيء آخر ويدفع بهما للمعركة حتى يقوم هو ذاته بدور الإمبراطور رغم أنه في الغالب لا يستأهل دور الضحية.. بسبب غياب شروط ضرورية هامة.. منها عدم وجود يد ممدودة ونظارة بعيدة.. وثقوب.

لقد شدني القانون الروماني.. كأنما هو إنجاز خارق شاركت الآلهة والبشر في صنعه.. لأن البشر آنذاك كانوا يشبهون آلهتهم ويرتدون الألبسة ويطلقون لحاهم ويجتمعون في الأعالي كما يجتمع البشر في السفوح... تحت قبة المجلس أو (البرلمان) أو تحت العراء. دون حقوق أو قوانين

تستر عوراتهم، لذلك يجدون المبررات للإنصراف للحب أو للمصارعة.

وها أنا أشعر بما أمتلكه من طول فارع. وعينين ملونتين وذكريات عن سطح مملوء بالشراشف البيضاء والهباب أنه يحق لي الإدعاء بأنني من السلالات العريقة التي لا يمكن ولا يحق لها أن تنصاع أو تهون.

عندما تقدمت إلى الامتحان في مادة القانون الروماني خرجت مزهوة كأنما أنجزت تأليف كتاب وليس مجرد إجابة على أسئلة.. وعندما أعلنت النتائج فوجئت برسوبي في المادة نفسها وحملي لها للسنة القادمة.. في تلك الآونة.. كانت بوادر الحمل تظهر على بطني. وكنت في حالة تفتقر إلى أي غطاء قانوني.. من أية حقبة من الحقب التاريخية المعروفة. حتى الرومانية منها. وكان المجتمع بصفته الهاأو إمبراطور يستعد لأن ينزل بإبهامه من أجلي.

-عامر انتبه إلى التحولات التي أصابتني وانتظر مني أن أصارحه.. لكنني لم أفعل. وعندما أحس بما يداخلني.. صارحني بعد أن شعر بالبروز الضئيل الذي أصاب بطني.

-أنت حامل..

-نعم.

-كيف حصل ذلك.

-لا أعرف.. ربما لأنني قرأت القانون الروماني مرات عديدة.

-ماذا تقترحين؟

-لا شيء، هل تستطيع تغيير القوانين.

-أمر غريب.

-أبداً.. تنتظر مني أن آتيك لأقول لك تزوجني، حتى لا ينكشف أمرنا.. وسترد عليّ قائلاً: ظروفي لا تسمح.. وأنا غير مستعد، وأشياء أخرى لا أعرفها.. ثم أبكي على ركبتيك وتنتابني الشهقات ربما أكثر مما شهقت وأنا أعد النجوم، في ليلة الحب الأولى. وبعد ذلك تخبرني أن الأمر صعب ما دام الجدار موجوداً.

-أبداً.. الأمر يعنيني.

-فماذا تقترح.

-لا أعرف.. يجب أن أفكر في الأمر.

-وإذا كان الزواج هو الحل الوحيد.

-عند ذلك سأوافق.

-لكنني غير موافقة، غير موافقة..

-هذا غير معقول، رد بعصبية.

-معقول جداً.

-أقنعيني.

-هذا أمر صعب..

أقصد.. البرد على سطوح بيتكم صار شديداً ولم أعد أحتمل...

-إنني أتحدث عن الصغير..

-الصغير لا يحتمل أيضاً... البطن كانت بطني وأستطيع أن أكشفها متى أريد... والآن أصبحت له.. وما عاد يحتمل البرد.

-نبحث عن بيت.

-البرد موجود في كل البيوت.

-ماذا تقصدين بالبرد. ما عدت أفهم.

-ألم تلاحظ الجدار.

-لاحظته.. ثم برقت في أطراف عينيه الحيرة والماء.

عندها تركته وعدوت.

كثيرة هي المرات التي حاول عامر فيها أن يلاقيني.. وفي مرات جاء إلى بيتنا وطرق الباب.. وكنت في حالة غريبة.. لقد جعلني هذا الشيء الصغير الذي يكبر في بطني قوية وعنيدة أكثر مما أحتمل. لذلك كانت تداهمني نوبات من الاعتزاز والقوة، تتلوها نوبات من التقلصات والوحدة الشديدة. وقد انتبهت والدتي وانتبه والدي رغم الجدار الهائل الذي يحجب الرؤيا والمودات.

بعدها قررت أن أصارحهما بالحقيقة.. وقد سعت والدتي إليّ لتعرف التفاصيل لكنني رغبت أن أبدأ بوالدي، ودون أن أقصد أفزعت أمومتها فارتعدت وأجهشت بالعواء الأمومي العظيم كأنما أحست فجأة أنها لم تعد أماً وربما غمرها شعور هائل بأنها فقدت ابناً وحيداً غالياً وليس ابنة طائشة مثلي.

لقد بدأت أحس بأنني لم أعد جديرة بالحب قبل أن تنتفخ بطني بالجنين، كنت بحاجة للحب، أما الآن فأنا أصنع الحب وأمنحه. لقد صرت أماً ولم أعد فتاة وحيدة.

عندما قعدت قبالة والدي.. سكتنا.. ونحن نتفرس في أشياء لا تخصنا ولا تعيننا على البدء ثم تابعت النظر إليه..

-لم يكن معك حق.. كان الأفضل أن تتحدثي إلى أمك قال والدي معاتباً.

-دراسة القانون شوشتني فلم أعد أعرف أي حق معي وأي حق ضدي.. هناك شيء واحد أعرفه.. أنني متعبة.

-لاحظت ذلك.

-إنني حامل، هل لاحظت ذلك أيضاً.

-حامل.. ماذا تقصدين.

-ارتبطت مع شاب بعلاقة.. وأنا الآن حامل.

نهض والدي مستثاراً من مقعده ورفع كفيه إلى السماء وصاح.. يا رب وكانت مؤلفات ماركس وانجلز ولينين تملأ رفوف المكتبة.

-الشاب الذي تورطت معه روسي أم عربي.

-عربي.

-كيف فعل ذلك ابن الحرام.

-أنا طلبت منه.

-أنت.. يا للعار. نهض ثانية ثم عاد وقعد، ماذا ستقول عني العشيرة. والناس والجامعة، وبدأ يضرب كفاً بكف، ويقول.. الحل الوحيد هو الزواج بأسرع ما يمكن وبأي شكل.. إذا لم يوافق الشاب نفكر بالتخلص من الجنين.

-لا الطفل لا. صرخت في وجه أبي.

-ليس طفلاً، إنه.. إنه، هناك حل آخر.. صديقي.. يمكن أن يوافق على الزواج منك.. حتى ولو كنت أقصد بعد أن تورطت.. والولد اللعين يمكن التخلص منه ومداراة الفضيحة.

-الولد ليس لعيناً، وانخرطت بالبكاء، كل شيء يمكن اتهامه وإهانته وإلحاق الأذى به إلا هذا الشيء الذي يخصني والذي يكبر في.

-لماذا لا يوافق هذا الابن حرام على الزواج منك لننهي هذه المشكلة.

-هو موافق.

-موافق، فماذا ينتظر إذاً، ليتقدم لخطبتك.

-أنا غير موافقة على الزواج منه.

-لا توافقين على الزواج منه، فكيف وافقت على...

-أنت لم تشاهد يد الرجل الممدودة، ولم تسمع صوت الطلقات، كان يمكن.. ثم أمسك ذراعي وأخذني بعيداً، وكنت أبكي وكانت الدموع قد وصلت إلى سرتي كأنما لتمسح عن الجنين دهشته.

-ولماذا لا توافقين؟

-لم أعد أحب الشاب.

-فلماذا تورطت معه.

-كنت أحس نحوه إحساساً مختلفاً. ربما لأنني كنت أحتاج إلى ولد، لذلك أحببته بشكل مؤقت، وعندما جاء الولد.. والبرد وتكاثف الهباب الأسود وما عادت السماء تلمع بالنجوم كما كانت قررت أن أحتفظ بالولد.

-أنت مجنونة.. شيء فاسد، لا عقل له.

-أنتم تحتاجون للطفل أكثر مني.

-ماذا تقصدين.

-أنت وأمي...

وجود طفل بينكما سيكون مفيداً وسيعيدكما إلى الحب والمودة، فتهدمان الجدار الملعون ثم إنكما علمتماني أن الزواج شيء لا يمكن احتماله.. لذلك قررت انجاب طفل من أجلكما وليس من أجل أي شيء آخر.. ومن أجلي أيضاً، ليتك تراه وتتعرف إليه.

-إلى من.

-إلى الطفل...

-وهل تعرفينه.

-طبعاً أعرفه.. أنا أمه.. أراه وهو يتحرك ويرفس على جدار بطني.. انظر وكشفت ثوبي وأمسكت يد والدي ووضعتها على بطني.. فتلألأت الدموع على أطراف عينيه، ثم قال.. معك حق.. الزواج شيء لا يحتمل.. والأطفال ضروريون غير أن وجود طفل بدون زواج وبدون أب شيء غير معقول.. نحن في هذه البلاد.. ولسنا في بلاد الموسكوف.

-أرجوك لا تذكر لي اسم صديقك مرة ثانية.

-أنا لم أذكره.

-أحسست بأنك ستذكر اسمه حتى يخلصك من هذه الورطة.

-صديقي يحتاج إلى من يوصله إلى البيت ولا يحتاج إلى زوجة.. ثم لماذا..؟.. صاح والدي غاضباً.. لماذا تحاولين ابعادي عن الموضوع.

عندما صرخ والدي صرخته تلك في وجهي أحسست به مختلفاً وشعرت بالظلم الفادح الذي أوقعته بأمي، وبعد قليل من الانتباه أحسست بالصرخة كأنما لا تتقصد إهانتي أنا وحدي وإنما تتناول ابني معي، فركضت إلى البيت وقصفت الباب.

أيها الوالد العزيز.. يا صاحب الصرخة العشائرية المفزعة، من أجل هذا الطفل تحملت برودة الجدران والأسطحة وتحملت سواد الهباب وتجهم السماء، وشعرت بالعالم كله معي عندما تصالبت إلى عنق عامر وتقاطع خدي برمانة كتفه الغامضة. وكنت أريد الصغير لأعيد الحياة إلى عش العناكب الذي تعيشان فيه.. لذلك هرعت إلى الغرفة، وكشفت عن بطني وبدأت بمناغاة الصغير وهدهدته والاعتذار منه.

ويا طفلي.. لا تحزن.. لا تحزن.. خذ كل حاجتك من الأمومة.. فما زلت رغم بطني فتاة طائشة ولها عينان مختلفتان مع الدنيا.. ولكن هذه الطائشة تحبك كأنما لم تشاهد في

حِياتها سواك، ويا طفلي.. لتنزل مني مكتملاً، ولتلتفت إليّ مرةً واحدة وبعدها فلتهرب بعيداً، فأنا لا أضمن لك طفولة ترضيك، ويا طفلي.. لو أنني أستطيع.. لمددت لك الإقامة في روحي ونبضي مئتين وأربعين شهراً حتى تخرج مني شاباً مكتملاً.

ولكنني

ولكنهم

ولكننا نكاد لا ننتبه لشيء حتى للدم.. ثم أسدلتُ ثوبي وأغلقتُ ساقيّ ونهضت إلى المرآة لأزيل الرطوبة التي غبشت عيني.

❒❒❒

الروح القدس..

اسمي في البطاقة الشخصية (عواد السمني) أنتمي لبيت (حماد السمني).

وهو رأس عشيرة السمانة التي تشكل أكثرية سكان حي باب النيرب، وهو حي شهير من أحياء حلب، وشهرته جاءت بسبب قيام الحكومة بالمداهمات الكثيرة لهذا الحي من أجل ضبط عمليات الثأر الكثيرة التي تقع بين عشيرتنا وباقي العشائر والأسر الحلبية الأخرى، كما وأن حيّناً يعتبر مركزاً رئيسياً للتهريب في المدينة.

تتداخل مع حينا بعض البيوت للأسر الحلبية المغمورة، والتي طلبت اللجوء السياسي إلى حمانا فقدمنا لها الحماية، وقدمت لنا الولاء.

أهل العشيرة يعملون في تجارة وتربية الأغنام والأشراف على صناعة مشتقاتها من سمن وجبن وحليب وأصواف مختلفة.

ويعتبر سوق (جب القبة) (وول ستريت) العشيرة، حيث تتقاطر أربعة أركان حلب إليه يومياً للتزوّد باحتياجات أبنائها من المواد المختلفة.

ولعشيرة والدي سلطة وسطوة، ولها قانون خاص يخضع له الجميع وهذا الموقع الذي ضمن لنا السلطة والنفوذ لم يضمن لنا الأمن والسلام الذي تنشده الأمم أو الأفراد، أو الحارات المتطرفة... أو العشائر والأغنام.

عندما قتل أحد أبناء عشيرتنا شاباً من بيت القزاز في كبارية الطاحونة الحمراء بسبب استهانة الراقصة (لواحظ) بدعوته لها وتفضيل ابن القزاز عليه والذهاب إلى طاولته بعد انتهاء نمرة الرقص.

بعد أن تم قتل ابن القزاز والاعلان على رؤوس الأشهاد أن الراقصة التي ترفض طلباً لشاب من (السمانة) لم يخلقها الله. وأنه لو لم تكن الراقصة راقصة، وهي ناقصة عقل ودين، لألحقها ابن العشيرة بعشيرها، ولسيّح دمها كما تسيح المنكرات من قناني الشمبانيا والويسكي على الطاولات وعلى أقدام الفنانات، ولأن قتل الراقصة لا يرفع مقاماً ولا يسمو بنسب، فقد تركت الراقصة لحالها عسى أن تتعظ وتتفرغ لأبناء العشيرة ورغباتهم في المستقبل.

عندما وصلت أخبار المعركة واسم الضحية وأصله وفصله

ونسبه، بدأ الاستنفار العام، ونزح أهل القاتل إلى البراري والآكام، وبدأت مراقبة الحي، واجتمعت أركان عشيرة السمانة وعلى رأسهم والدي.. والدم يغلي في عروقهم، وفي الاجتماع العاصف أقرت الغالبية من المجتمعين أن ماقام به (نعسان الزكور) وهو شاب من العشيرة.قد رفع رأس العشيرة وجعل لها مقاماً كريماً في الحارات والكباريهات، وتم إعطاء التعليمات باستضافة البطل في بيوت رجالات السمانة حتى تتغير الحكومة ويضيع الأثر وتسجل القضية ضد مجهول.

وقد أقر الكبار بغالبية العاقلين منهم، أنه يمكن أن تدفع دية مضاعفة لآل القزاز أهل القتيل، حتى يتناسوا ثأرهم ويسحبوا شكواهم، ويقفل الموضوع، وتعود الأمور إلى نصابها.

وبعد جمع وتقسيم وطرح وتقويم تبين أنه على كل واحد من أفراد العشيرة أن يدفع مبلغ (نصف ليرة) وبذلك يمكن تغطية الديّة التي ستبلغ (عشرة آلاف ليرة)، وهذا مبلغ كبير في عرف تلك الأيام، ومن شأن هذا المبلغ أن يكفي لافتتاح كبارية بالتمام والكمال، كما يزيد منه لتحسين الأوضاع فيه، واستقدام عدد من الراقصات من بيروت ولندن وباريز، ومن بنات القرباط والعشائر الشاردات.

وعندما يقرُّ مجلس العشيرة أمراً، يلتزم الجميع به دون سؤال أو استفهام، فلقد كان المثل القديم (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) يعيش مجده في عشيرتنا مع اجتهاد واضح في التحليل والتفسير، فنصرة الأخ الظلالم. تتم عن طريق دفع دية ضحاياه ونصرة المظلوم عن طريق استنكار ضعفه، فالعشيرة ليس لها أن ترفع رأسها إذا كانت تظهر للمظلومين رأفة أو انتباهاً.

غير أنّ بيت القزاز وهم من الأسر الحلبية التي يُؤمن جانبها ويُتقى شرّها ولها دور بارز في حماية باب جنين وباب انطاكية من الغزو الداخلي والخارجي ولهم صولة وجولة في الكباريهات وعند الراقصات، السّافرات، وأفراد هذه الأسرة يتقاضون مبالغ معلومة بمثابة (خوة) يتم مقابلها الدفاع عن أمن تجار الخضار والفواكه والمكسرات من أول سوق باب جنين وحتى السقطية.

* لذلك أحس رجالات العشيرة بالخطورة، وبدأت أنصاف الليرات تتدفق بشكل محموم إلى بيت والدي (زعيم العشيرة) من أجل جمع دية ابن القزاز القتيل الذي دفع ثمن وسامته غالياً، عندما فضلته الراقصة على بطل العشيرة ومجدها نعسان الزكور القاتل الذي طعن المغدور طعنتين على بِزه الأيسر فسقط مضرجاً بالدم، وقد انشغلت عيناه قبل انطفاءتهما الأخيرة، ليس بمتابعة وجه الجلاد، (القاتل) وإنما بالنظر إلى سيقان الراقصة المستغربة، التي ألقت الطعنات برأس القتيل، مصادفة قرب ساقيها العاريتين... لذلك وعندما انصرف إلى العالم الآخر بقيت صورة الساقين في عتمة عينيه، بقيتا حتى يتمكن من الاستغاثة بهما أو التعلق ببريقهما، عندما

يهوى بجسده إلى القرار السحيق.

عندما تراكمت أنصاف الليرات في طنجرة النحاس في بيت (عواد السخني)[2]انتبه إلى أصوات الرنين وشارك وأختيه عبلة وعاتكة في إعادة عدهما وهو يصفر من كثافة المبلغ... وقد دفعه ذلك لأن يسأل عن أسباب اجتماع شمل أنصاف الليرات بهذه الكثافة، فحكت له أمه -الحكاية كما رواها لها أبوه- فكبر القاتل في عينيه وعيني أختيه الكبيرتين وتمنتا في سرهما أن يستضيفه والدهما في بيتهما ليسترقا النظر إليه، وربما ليتحدثا معه، أو... أو قالت الأختان الكبيرتان اللتان عنستهما سلطة الوالد وغياب الجمال: ربما فعل معنا أشياء أخرى...تؤدي إلى موتنا فنتخلص من هذه الحياة وهمها.

كان حميد السمني والد عواد، مالكاً لطرش من الأغنام يُقدر بألف وخمسمئة رأس، وله في البادية بين حماة وتدمر ودير الزور قطيع من الجمال يقدر بستين رأساً، لذلك كان البيت واسعاً، والضيوف كثر، والنسوة اللواتي يأتين يومياً للخدمة كثيرات، غير أنه رغم الثراء الملحوظ ووجود سيارة بيك آب لمتابعة القطعان، تشبه طنابر هذه الأيام، ويستعين بها الوالد على أداء بعض الأعمال رغم وجود هذا المظهر المتحضر، الذي هو السيارة، غير أن الحياة في البيت الواسع بدائية كأنما هي في البرية، ففي طرف باحة الدار المرصوفة بالحجارة ترقد عشرة رؤوس من الخراف والنعاج بشكل شبه دائم من أجل تموين المطبخ. وفي المطبخ يرتفع الموقد الذي يعمل على الحطب وعليه ثلاث طناجر خاروفية كبيرة، تنزل واحدة وتصعد أخرى، وتتوسط الطناجر الثلاث واحدة لسلق اللحم وحولها وصيفتان، واحدة للرز وأخرى للبرغل، والنار لا تخمد، وروائح الشحوم والدهون لا تغادر جدران البيت وأنوف ساكنيه.

كان والدي يرغب في قرارة نفسه أن يجاري الأسر الحلبية الموسرة، بسبب من أهمية موقعه في السوق والعشيرة.... وقد أهله هذا الإحساس للنزول عند إرادة الخلصاء، والأصدقاء الحلبيين والسعي لتغيير السكن، فاشترى في حي المحافظة الراقي غربي حلب شقة أرضية واسعة في بناء مهيب، وانتقلنا إليه وتبعتنا الأغنام والضيوف والطناجر والبخار والروائح.

وقد تطلب هذا أن أنتقل إلى مدرسة أخرى قريبة من البيت الجديد، وكانت المدرسة الأقرب، مدرسة أهلية خاصة اسمها (التير سانت) أي (الأرض المقدسة)، يشر ف على التعليم فيها رهبان وقسس وأساتذة فرانكوفونيين ولها مناهج مختلفة.

وقد استطاع والدي الحصول على موافقة انتقالي إليها بعد أخذ ورد وتوسط من كبار أعضاء (نادي الشرق) نادي الصفوه من رجالات الصناعة والتجارة بحلب، وقد اضطر والدي لدفع، مبلغ

---

(2) يلاحظ القارئ تبدل ضمير الخطاب الروائي، من المتكلم إلى الغائب... وبالعكس، ,هذا الأمر سيستمر حتى نهاية الرواية.

كبير لدعم النادي مالياً، ولمبلغ أكبر لدعم المدرسة روحياً.

غير أن وضعي في هذه المدرسة الغريبة لم يكن يطاق لأسباب كثيرة.

كانت زرافات من الذباب تتقصد صفنا دون بقية الصفوف.. وتتقصد المقعد الذي أجلس عليه دون بقية المقاعد، وتتقصد جسدي المبارك دون بقية الأجساد، فترف فوقه وعلى جوانبه مثلما ترف الفراشات على جسد بوذا صغير.

وقد انتبه الأساتذة إلى الأمر، وانتبه الطلاب فذعروا وطلبوا اللجوء السياسي إلى أطراف الصف والمقاعد البعيدة، وهكذا بقيت على المقعد وحيداً من الأمام والخلف والجوانب، كأنني جزيرة وسط محيط شامت وممتعض من البشر، ولو لم يتابع الذباب التدخل لاخراجي من العزلة لكانت الوقائع الكبار وقعت. ولأنني كنت أستغرب طبائع هؤلاء الناس، وأستغرب عنجهيتهم، فقد دفعتني مشاعر الاعتزاز بالذباب وبالنفس لمعاملتهم بالمثل وقلت بيني وبين نفسي هذه الامتيازات التي أعيشها يجب أن توزع بالقسطاط المستقيم على الآخرين.... فصرت أرفع كفي وأختطف قبضة من غيوم الذباب المحيطة برأسي وألقيتها على من هم حولي حتى ينعموا بما أنعم من البركات ولأسهم في تخليص وجوههم من حالات الانقباض والانحسار التي تصيب ملامحهم فتحولها إلى ملامح قرودية كئيبة.... فالناظر إليهم دائماً مثلي يحس أن تقلصات دائمة في المعدة والأمعاء تصيبهم فتمغص وجوههم وأخلاقهم وتدفعهم ليكرهوا غيرهم ويكرهوا أنفسهم، وقد تقصدت أن أتابع مسيرة انفعالاتهم خلال مرحلة الذباب التي عشتها فلم ألمح واحداً منهم يتجرأ على الضحك كأنما يخشى كل منهم أن يسمعه صديقه فيشي به إلى الإدارة، عند ذلك تكون الطامة الكبرى التي يتم بموجبها تحرير قائمة العقوبات من خزانتها، كأنما كان الضحك عندهم ينتمي إلى العهود الوثنية القديمة وعليه فإن ممارسته توازي تهمة الالحاد بالنسبة للمتشددين الدينيين، وكان وضعي لا يطاق أبداً.

لذلك تريثت الإدارة في استصدار قرار بطردي من المدرسة بعد أن عملت بنصيحة أحد المقربين وقررت استدعاء والدي لتوضح له الأمر من أجل البحث معه عن حلول.

في تلك المرحلة، كانت عمليات البحث عن بطل العشيرة، قاتل (ابن القزاز) في ملهى الطاحونة الحمراء في أوجها من أطراف الحكومة ومن طرف آل القتيل، وعلى ذلك صار ضرورياً البحث عن مكان آمن لإيوائه، لأن القبض عليه صار لا يعني شخصه الكريم وسمعته وإنما شخص العشيرة وسمعتها لذلك تمت استضافة المدعو نعسان الذكور في بيت حميد السمني في حي المحافظة الراقي، وأعطي بذلك الغرفة القبلية التي لها باب على الحديقة، مطل على مرابط الأغنام التي تنتظر أدوارها في الذبح، كان وضعنا في الحي الجديد، مثل وضعي

في المدرسة الجديدة شيء يكتنفه الغموض والذباب، وقد أقام القاتل في البيت مِعززاً مكرماً، والحزن لا يفِارق وجهه، ولم تكن روحه تشتهي شم الهواء بسبب تكاثف بعر الأغنام قرب باب غرفته، لذلك نصحه حميد السمني لكي يخرج نفسه من عزلته أن يهتم بتربية الأغنام وأن يقوم بحلبها وجمع البعر من تحتها، فتحول الرجل بلمحة عين من عنترة العشيرة إلى راعي أغنامها ومدبر بقية شؤونها، وكان حاله يشبه حال عنترة في الحكاية المعروفة، غير أن القصة حتى تستكمل شروطها تحتاج إلى فتاة جميلة اسمها عبلة، وهنا تحققت الاطاحة بهذا الشرط والخروج على الرواية خروجاً فاضحاً، كانت عبلة، الأخت الكبرى موجودة في البيت، ولكنها لم تكن جميلة ولا بيضاء، كانت سمينة وقصيرة وسمراء، وكانت عاتكة أختها تصغرها بسنة واحدة وكانت رفيعة وطويلة وصفراء.

لذلك وجد عنترنا نفسه أمام عبلتين دفعة واحدة، ولأنه انتبه إلى وجهيهما فقد قرر بينه وبين نفسه أن يوثق علاقته بالأغنام فهذا أفضل له ولمستقبله، ولكن (عبلتا) الحكاية الجديدة، وبعد تشاور وبكاء، وتذكر وتنهد قررتا ودفاعاً عن أنوثتهما الضائعة، أن تراود (1) البطل عن نفسه أولاً، فإن لم يستجب فستسعيان إلى اغتصابه، وكان البطل منصرفاً بكليته إلى تذكر زوجته وولديه وساقي الراقصة التي أهدر من أجلها دم رجل، وهاهو الآن يهدر طبيعته وروحه، ولكي تستكمل المأساة البدائية شروطها، كان بطل العشيرة عكس عنترة، وسيماً طويلاً ويميل إلى البياض وعيناه حادتان، وشارباه دقيقان وشفتاه على عكس الأختين لا توجد فيهما غلظة، ولقد أعطت تقاطيع الرجل وملامحه الدقيقة الشرعية لسقوط الأختين سقوطاً مدوياً، بعد أن أعطاهما الجوع والدمامة الحق في التخطيط لاغتصابه إذا تشدّد ومانع.

أما إذا فعلها واستجاب، قالت إحدى الأختين لأختها:

- سيكون يوم المنى... أجابت الثانية...

- وإذا حملنا منه وافتضح أمرنا...

- سيكون يوم المنى أجابت الثانية...

- وإذا قتلنا أهلنا ليغسلوا عارنا...

- سيكون يوم المنى.. أجابت الثانية، فمثل هذه الحياة لا يوجد من يحزن عليها.

- وإذا لم يوافق أن يفعل معنا ما نريد...

- عندها يكون قد جنى على روحه ومستقبله، أجابت الثانية بعد أن اغرورقت عيناها بالحب والحاجة إلى الرجل.

كانتا تتمنيات أن تتحولا إلى نعجتين لتحظيا منه بالاهتمام الكافي الذي تحظى به بقية الأغنام التي وجد نفسه مسؤولاً عن رعايتها، وكان من موقعه يتابع مرور الفتيات الوسيمات من الطرف القريب لسور البناية وهو منشغل بالاهتمام بالأغنام،

والأختان تتغامزان وتراقبان بغيرة وحسد وتحاولان تقديم فروض الطاعة والاهتمام وأطايب الطعام إليه لينتبه، وكانتا معاً تدخلان غرفته وتقومان بترتيبها، وفي مرة تقدمتا إليه وطلبتا منه أن يخلع نعليه، لتغسلا له قدميه، وأشارتا إلى المياه والطشت والصابون، لكنه رفض.

لذلك اضطرتا لارغامه، فبطحتاه على الأرض وقعدتا على صدره، وعندما أحس البطل بالاختناق والعجز عن نطق الشهادة وبأنه سيموت ميتة الكفار والعياذ بالله، قرر الموافقة والرضوخ عند ذلك، وضعتا تحت قدميه الماء، وانفردت كل واحدة منهما بقدم وبدأت تلامسها وتعالجها حتى أصيب الماء الفاتر بالإثارة وتعالت فقاعات الصابون من شدة الفرك والانفعال، وهاهو الصابون يفهم.... والبطل لا يفهم، ثم بحركه موحدة، رفعت كل أخت قدماً ووضعتها على وجهها ونامت بكل خدها وجسدها وجوعها فوق سطح القدم التي بين كفيها.

وظلت الأختان على هذه الوضعية حتى تبلدت قدما الرجل وأصيبت ساقاه وروحه بالخدر والخوف ولم تصابا بما يعين الأختين على تحقيق الأهداف، فيا للحارات المجيدة والعشائر الضخمة، ابنتا رأس العشيرة تشخران بوجهيهما على قدمي رجل من رجالها ولا يهب أحد للنجدات، فأين هي المروءات، وأين هم الرجال الذين يطعمون الجائع ويغيثون الظامئ، ويظللون من قتله الرمل وأفنته السخونة والثارات.

كان الرجل وساقيه الممدودتين والمفتوحتين مثل امرأة تستعد للمطارحة، ولم يكن مستجيباً لأية حالة، مما أوقع الفتاتين في البكاء الذي يجرح الأرض والسماء.

في المرة الثانية سجدتا أمامه وطلبتا منه أن يرحم أنوثتهما، وحلفتا أمامه بالمقدسات كافة أنهما لن تخبرا أحداً بما سيفعل وستخترعان رجلاً لا وجود له وتلفقان معه التهمة، ورجتاه أن لا يخاف أبداً لأن الخوف يذهب برجولة الرجل وفحولته، فيصبح شيئاً تالفاً لا فائدة منه ولا جدوى.

غير أن البطل رد على الكلام بدهشة بالغة وصاح ولكنني إذا فعلت أكون خائناً للرجل الذي فتح لي بيته.

- والدنا فتح لك بيته فقط، ردت عاتكة بانفعال، أما نحن فقد فتحنا لك قلبينا، ومستعدتان (لكي نؤكد لك حبنا ومودتنا) أن نفتح لك أشياء أخرى، ففهم البطل قصدها دون أن تشير إلى ساقيها، وشعر بالتعجب من صراحة عاتكة، وضخامة ساقي عبلة، فقرر أن يتشدد ويتابع الحديث عن الأخلاق ليحمي نفسه، والتشدد يورث التشدد، وكلما ازدادت الأختان تذللاً وضراعة ودموعاً، كان البطل يزداد عناداً وأخلاقاً.

ومن كثرة الأخلاق التي تحدث عنها تحول إلى كائن لا يطاق، فتعاونت الأختان عليه وبطحتاه أرضاً وحاولتا فك الارتباط بين جسده والألبسة، غير أن الرجل أغمض عينيه وتابع مسيرة

التشدد السالفة برجولة واضحة وأعضاء متماوتة، ثم امتدتا بأكفهما إلى الجسد ودهشته.... وبدأتا تزيلان عنه الوحدة والملوحة المتراكمة.

في الأيام التالية تابعتا خطتهما مع الرجل وكان يتهرب إلى الحد الذي نقص فيه وزنه كثيراً حتى يتمكن من الانزلاق بين الأكف الجائعة التي تحاصره، وظل على هذه الحال حتى أعيا مريديه، لذلك اتفقت الأختان على الدخول في المرحلة التالية.

في الليل تسللت الأختان إلى مخدع الرجل، وهما تحملان زجاجة فارغة، فوجدتاه متمدداً على الفراش فقعدتا حوله في الظلمة تتأملان تردد أنفاسه وتقاسيم وجهه وانتبهتا إلى حركة جسده وزفراته.

وكان الضوء يتسلل من خارج الغرفة ليكشف تفاصيل المكان، لذلك تقدمت الأختان إلى رأس الرجل وضربتاه بزجاجتهما الفارغة التي أحضرتاها لهذا الغرض، فتوقف جسد الرجل وغاب عن الوعي.... فما كان من الفتاتين إلا أن تهدلتا قرب الجسد فزعتين وهما تتساءلان باحتقان... أسئلة مصيرية هائلة... عن صحو الرجل وغيابه عن الوعي، وأي الحالتين أجدى للمرأة وأكثر إشباعاً... وبخاصة عندما يصبح الوعي لعنة، تدفع الرجل للتشدد والزوغان.

في اليوم التالي استفاق البطل متأخراً وأخذ يتفقد رأسه وزوغان بصره دون أن يعرف الأسباب، وقد تكررت معه المحاولة، ثانية وثالثة حتى كاد أن يفقد رشده من شدة الضرب، لذلك صار يتمنى أن تتعرف الحكومة أو بيت القزاز إلى مكانه ليقوما مشكورين بقتله أو زجه في السجن، حتى يتخلص من أيام الحرية التي كادت أن تهرس له مخه.

في تلك الآونة استدعى والد عواد إلى المدرسة للتباحث معه في أسباب أسراب الذباب وكيف سيتم التخلص من هذه الظاهرة المحيرة التي لا تليق بالمدرسة وبسمعتها، وكان الجميع في حالة هياج واختلاف في الرأي، بعضهم يطالب بالتخلص من الطالب، وآخرونِ يطالبون بالتخلص من الذباب، ووقع الجميع في الحيرة والتردد، من من الطرفين يستطيع أن يتحمل النتائج، وقد بدا الأمر مخجلاً (لحميد السمني) والد التلميذ النجيب (عواد) الذي بات يشكل بالنسبة لأقرانه ومدرسته ظاهرة مدهشة، وقد قال المدير للأب موضحاً: إذا رغبتم من ابنكم متابعة الدراسة في مدرستنا التي لم تعرف في تاريخها ظاهرة مثل التي حصلت مع ولدكم، فعليكم أن تعلموه على النظافة والاغتسال كل يوم لأن رائحة الشحوم والدهون واللحوم تعج منه عجاً، لذلك يستلطفه الذباب ويطير عنه الأصدقاء، ثم نصح الأب العطوف بضرورة استخدام أنواع محددة من الصابون لها روائح نفاذة تستطيع أن تبعد الذباب والروائح، وتحقق المعجزات، وقد طلب الوالد تسجيل أسماء أنواع الصابون المطلوب على ورقة حتى يتمكن من إحضار كميات كبيرة منه وحتى ولو كانت

موجودة في بلاد الواق الواق، وكذلك وعد الأب، بإزالة جميع الأسباب المساعدة من أغنام وخارجين على القانون حتى يحاصر الذباب ويوضع في ظروف غير مواتية.

وهذا ماكان، فبعد أن عاد والدي من المدرسة، والعار والذباب يكلل جبهته، أمسكني وعلقني من قدمي في غرفة الضيوف وانهال على جسدي بعود من الخيزران الطويل يحمل الرعيان مثله ليهشوا به على الأغنام والحمير، وكان القصد من هذا الضرب القاتل إحراج الذباب، ودفع جلدي ليفك ارتباطه بأية علاقة مشبوهة معه، ثم تابع الأب اتخاذ القرارات المفزعة، فأمر بطرد بطل الأغنام من الحديقة وإعادتها إلى بيتنا الأول في باب النيرب، ثم استتبع ذلك بقرار كان له أثر مدو في أركان الأسرة والمدينة وذلك عندما أمر بطرد بطل العشيرة من المنزل، فتحطم لذلك قلب الأختين، فازدادتا سمنة وخوفاً. ودخلتا في الحزن العميق، كذلك أمر حميد السمني بأن تحمل غرفة الضيوف وأثاثها وعفشها إلى البيت القديم ليصار إلى استقبال الضيوف هناك، ومنع أحد من دخول أو إلى زيارة بيت المحافظة، ثم برقت في رأس والدي فكرة جديدة همس بها إلى أحد المقربين والأصدقاء، فبدأت عمليات البحث المحموم عن عروس جديدة له تكون ابنة أسرة حلبية مرموقة حتى يتمكن من الانتقال تماماً إلى حياة المدينة بعد أن أخجله الذباب خجلاً شديداً.

ولم تمض أيام حتى وجد أرباب الخير عروساً لوالدي متزوجة من رجل سابق أعطاها ماله وبيته وهرب إلى أمريكة اللاتينية حتى يتخلص منها ومن وسامة أسرتها وعراقتهم.

وبعد مباحثات وأخذ ورد... ذهب والدي للمشاهدة فكاد أن يغمى عليه من شدة الفرح، فوافق على كل الشروط، وبدأ التحضير للعرس بعد دخول كميات كبيرة من الصابون إلى بيتنا وورود تعليمات خاصة لاستعمالها في غسل الوجه واليدين والجسد والألبسة، وبعد أن تم تنظيف الحديقة من مخلفات الأغنام، والغرفة القبلية من الخارجين على القانون.... ورأسي الأختين من الأوهام ماعادت للزجاج الفارغ حجة فتطايرت القناني بحثاً عن بشر أكثر ألفة، وأختين أكثر قدرة على الاحتمال.

قبل زواج الأب بأيام، حزمت الزوجة القديمة عفشها ونفسها وذهبت وابنتاها عبلة وعاتكة إلى البيت القديم في باب النيرب وبقي عواد باعتباره الصبي الوحيد مع والده، لأنه لا توجد ضمانات لإنجاب ولد جديد من الزوجة الجديدة بسبب المساحيق والأصبغة الكثيفة التي تطلي بها وجهها وأظافرها وعناصر خصوبتها، لذلك تقرر أن يحل ضيفاً معززاً مكرماً على بيت والده ووالدته الجديدة.

ولأن بيت الوالد أقرب إلى المدرسة فقد اضطر لمتابعة الحياة فيه دون أن ينسى زيارة والدته وأختيه أيام العطل الكثيرة.

وقد أعطت المرحلة الجديدة ثمارها فانصرفت عني أسراب

الذباب التي كانت ترافق خطوي وحلي وترحالي، وبدأ التلاميذ في الصف الثامن يغيرون نظرتهم إليّ بعد أن أدهشهم تفوقي في المواد الدراسية كافة وابتعادي الشديد عن المواد الدهنية، كما أثار انتباههم امتلاء جيبي الدائم بالنقود وامتلاء رأسي بالمعارف المختلفة والقصص والراويات التاريخية.

غير أن ذباب الوحدة والأسى كان يرف على الأم والأختين القديمتين مثلما يفعل الذباب الحي وهو يرف بغبطه وكثافة فوق زاويه الأغنام.

فالبطل الذي عولت عليه الأختان كثيراً... سلم نفسه للسجن والعبودية بعد أن شعر بالدوار والاحتقان بسبب الضربات المتتالية التي نالت من رأسه، وبسبب من ملاحِقة دم الضحية ودم العذرية لدى الأختين، له هذا الدم الذي اسودّ من الشوق والضراعة، وهو ينتظر رجلاً يهدره، فيا للشجاعه. يخضبون صدور الرجال بالدم، ويتركون مفارق الفتيات للبرد والحسرات.

المهم أن الرجل فعلها بعد أن ضمن تماسك رأسه لمدة وجيزة، ثم أطلق صرخته المدوية، وداعاً يا أيام الحرية، ويامرحباً بالعبودية والسجون معارضاً بذلك مسيرة البطل الملحمي (عنترة) الذي انطلق من العبودية إلى فضاء الحرية الفسيح، أما عبلة، ويا عيني على عبلة وعلى سمرتها الشديدة وساقيها العريضتين وأختها عاتكة قاعدة بصفرتها وخوفها في ظلالهما.

أما الأختين فيا عيني عليهما، فلولا الصور والأخيلة والذكريات التي اقتنصتها كل واحدة منهن من أيام الرجل المطارد واستلقاءة جسده المسترخي وتفاصيله وغيبوبته، لولا تلك الذكريات والأخيلة التي تستعينان بها على سواد الليل الرحيب، لكان الله وحده يعلم إلى أي هاوية انجرفتا وإلى أي درك.

الأقدار المجيدة وحدها أحضرت الذباب وصنعت التحولات وإلاّ من كان يعرف النتائج التي ستصيب البيوت بعد أن تفقد الأختان عذريتها دفاعاً عن النفس، وتنتفخ بطنيهما بالخصوبة والعار.

ثم تتالت التحولات بعد أن جاءت زوجة الأب نائلة إلى البيت وأحضرت معها أحمالها وأخلاقها.

كل شيء في البيت تغير، الأثاث والجدران، وأزيلت ملامح المطبخ القديم وأعيد بناؤه، وقسمت الغرف ووضع الأثاث الذي اختارته زوجة الأب بنفسها وكانت لكل قطعة أثاث أربعة أرجل وبذلك أطاحت بمرحلة الأثاث الأرضي الزاحف الذي لا أرضاً قطع ولا سهلاً زرع، وانتقلنا من مرحلة الاستلقاء على الحشايا والوسائد والتكايا في الليل والنهار، إلى مرحلة القعود نهاراً على المقاعد والديوانات والاستلقاء ليلاً على الأسرّة، وكل في مكانه وليس الكل في أي مكان وأي وقت. الانتقال إلى المرحلة الجديدة كان صعباً، لكن الاعتياد على الأشياء الجديدة، لم يكن شديد السوء، المهم... أنّ نائلة، ومربيتها قد فعلتا الأعاجيب فينا أنا ووالدي، فرغم مشاعر الاحتقار العميق التي تكنها زوجة أبي

والمربية لي إلاّ أنهما صممتا على انتشالي من مرحلة الذباب السابقة، وقد أفلحتا في ذلك، فتحولت وبسرعة قياسية إلى شاب جديد شديد النظافة والذكاء وظهر جلدي على حقيقته بعد أن أزيلت الشحوم والدهون المتراكمة عليه، ففقد بريقه ولمعانه وتحول إلى جلد أسمر خامد ويميل إلى الرماد، وأصبح جلدي وحيداً دون دهون وشحوم وروائح، ولم يعد يتراكم عليه سوى الغربة، والاضطهاد والنظرات العاتيه من الذباب العابر. وأختاي في البيت القديم الذي تتسع بوابته لدخول جمل بأحماله، أختاي تراقبان الأغنام المتناقصة وهي تتقافز بمرح ظاهر دون انتباه إلى حد السكين. تراقبان وتتمنيان لو أنهما كانتا من فصائل الأغنام أو السعادين.

صرنا في البيت الجديد نتناول كل يوم ثلاث وجبات ونملأ في كل وجبة ثلاثة صحون (الأونا.... والدوي... والتري) وأصبح الحديث عن الأغنام وحركة الحلب والجز والتلبين والتجبين والخض ممنوعاً... وتراكم الزوار والويسكي والسيجار في الأمسيات، وأصبح استقبال الأصدقاء وزوجاتهم الأنيقات عادة يومية.

وتعلم الوالد الكريم تدخين السيجار وبسبب من عدم اعتياد أصابعه على إمساكه فإن أصبعه العليا كانت تبتعد كثيراً عن الإصبع السفلى. مما يؤدي إلى سقوط رماد السيجار على السجاجيد الأرضية، والمخامل التي تغطي المقاعد والديوانات، وقد دفعته رغبته الشديدة في تطبيق (الأتيكيت) وضبط حركة أصابع يديه معاً، لأن يفقد أغنامه وجماله وصحراء أجداده، وأبطال عشيرته.

بعد أيام من تعلم تدخين السيجار والانتباه إلى حركة أصابع يده الثانية. قرر والدي أن يبيع ثروته من الأغنام والجمال، حتى العدد الضئيل من الأغنام المرحة التي تلهب مخيلة أختيّ بقفزات تيوسها الفاضحة في بيتنا القديم، أدرج في البيع مما أدى إلى انقطاع الأختين الحزينتين عن العالم والأمنيات.

ثم تحول والدي للعمل في التجارة، ولأنه لم يكن من رجالها بسبب أصوله البدوية العريقة فقد بدأت ثروته بالتدهور والتراجع، فقرر أن يستعجل الحصول على الربح من أجل أبعاد الكارثة، فصار يعمل بالتهريب.

عندما دخل الوالد الكريم سلك التهريب ظهر مثل الطائر الغريب الذي يطير في غير سربه، ولأنه لم يكن قد فهم طبيعة العلاقات والمصالح بين الحياة الحكومية المخصصة والمهربين بسبب دخوله المباغت إلى هذا العالم الغريب الحذر.... لذا بدأت نذر العاصفة، وقررت الأطراف إعادة الأمور إلى نصابها للسيطرة على حركة السوق، فاجتمعت ميليشيات المراقبة الحكومية، وميلشيات التهريب الأهلية، وتقرر القيام بالمداهمات المطلوبة لإخراج الطائر الغريب.

في ليلة الاجتياح تم تحديد الأهداف، وتجمعت قوات الهجوم وتمت المداهمات في وقت واحد، وقد أخرج المداهمون من بيت المحافظة عدداً من زجاجات الويسكي وصناديق السيكار، لأن زوجة الوالد لم تكن تسمح بدخول المواد المهربة إلى عش الزوجية البهيج حتى لا تهتز صورتها وصورة أهلها في المجتمع الحلبي.

أما الميليشيات التي داهمت بيت باب النيربين فقد أخرجت من البيت والأقبية العجب العجاب، أعداد كبيرة من صناديق الدخان المتنوع وأجهزة الراديو ومسجلات البَكَر وأكياس التتن الفلت، والتنباك المهرب والساعات والسماعات وكاسحات الألغام، وتمنت الأختان عاتكة وعبلة أن تقع المداهمة عليهما، ويتم ضمهما إلى صناديق البضائع المهربة لاعتقالهما، فربما.. ربما شاهدتا في السجن بطل الأحلام والعشيرة الذي سلم نفسه بالرضا التام والموافقة لمخافر الحكومة.

ولكن دورية الشرطة المكلفة بمصادرة المهربات لم تلتفت إلى الفتاتين كأنهما بضاعة تالفة، فبالصلف الحكومة وبالإستهانتها بمشاعر الأخوات الوحيدات، كذلك تمت مصادرة الوالد الكريم وأودع السجن... وبعد ذلك بدأت المحاكمات وحددت الغرامات، وتم بيع الأثاث بيت المحافظة ثم بيع البيت ودفع مالقيصر لقيصر وما للحكومة للحكومة، وترك الشعب والله دون حصة.

بعد أن دفعت العشيرة الكفالة والغرامات.

خرج الوالد العزيز من السجن وعاد إلى البيت القديم في باب النيرب وإلى أحضان الزوجة العتيقة والبنتين الهائلتين، وعاد معها الابن عواد السمني ربيب الأحياء الراقية والمدارس الفرانكوفونية المتعالية إلى البيت القديم والحياة السالفة دون بهجة ودون حنين، فالحياة في بيت حي المحافظة رغم خلوها من الودّ واكتظاظها بالأنظمة والتعليمات إلا أنها وجدت في نفسه هوى.... فيها تمكّن من الخروج من مرحلة الذباب والدهون الماضية ودخول حياة المدنية دخولاً مدوياً، كسب من خلاله اعتراف الطوائف المختلفة بجدارته ومدنيته، صحيح أنه يحب أمه وأختيه ويشعر بالحراراة والحفاوة في حضورهن، لكن نمط حياتهن أصبح شيئاً لا يمكن العودة إليه والشعور بالألفة معه.

بعد أسبوع من انزواء الأب في زاوية البيت القبلي دون كلام أو طعام، دافناً رأسه بين مخدتين متخشبتين، مديراً مؤخرته إلى الباب معبراً عن موقف فلسفي تجاه العالم المجاور، وخاصة عندما تمغص أمعاءه التقلصات والغازات النادرة.

بعد أسبوع من العزلة والهواء الفاسد، كانت الأم العتيقة والبنتان العجيبتان في وضعية الضراعة والابتهال أمام الباب الموصد، عساهن يفلحن في إخراج رأس الوالد من بين المخدتين، وتغيير الوضعية بحيث يصبح الرأس في الأعلى، حتى

يخف صوت الانفجارات المتناوبة والروائح التي يصدرها الوالد بمثابة احتجاج على هذا العالم الظالم.

بعد أسبوع من المناشدة الضراعة من الأم القديمة والأختين حدث الزلزال واضطر الوالد لتغيير الوضعية، فلقد فوجئ الباب، والحارة، والأم، والبنتان، بدخول الجسمين الغريبين، وفوجئت الحشود بالطرقات المدوية على الباب، فانتقلت الأم وابنتيها من وضعية السجود والضراعة إلى وضعية الوقوف والذهول، وانتقلن رغم خيانة ركبهن لهن إلى الباب مترنحات ودفعة واحدة فتحن الباب، وكانت المفاجأة، زوجة الأب الجديدة ابنة حي المحافظة الراقي وخادمتها على الباب، ولأنهن نسين من الخوف والمفاجأة أن يرحبن بها، فقد دخلت دون أن تنتظر منهن كلمة واحدة ثم وقفت في باحة الدار، وتأملت الأرض والسماء، وأبواب الغرف المحيطة بالباحة، ثم صاحت..... حماد...يا حماد، فقفز الوالد الحنون من مكانه وخرج إلى الباب وفتحه وتأمل بدهشة. الكائن الواقف وسط الباحة، فأحس الوالد بعد أن تخلص من دهشته أن زوجته الثانية قد حضرت للحرب وللمطالبة بالحقوق (المقدم والمؤخر) لذلك استعاد نفسه ولهجته وقال لها بغضب:

- ماذا تريدين يا نائلة.

- لا أريد شيئاً، جئت إلى بيتي، ثم انطلقت تفتح الأبواب وتتأمل الغرف. وصاحت، أحضري الأغراض إلى هنا يا داده، هذه ستكون غرفتي.

- تعيشين معنا ياناىلة، سأل الوالد مستغرباً.

- المرأة تعيش في المكان الذي يعيش فيه زوجها.

حتى أمي ضرتها بكت، كذلك فعلت أختاي وأنا أيضاً، لقد أدهشنا جميعاً أن تفعل زوجة أبي الثانية مافعلت، وبعد أن استقر بها المقام بدأت محاولاتها الحثيثة لتغيير نمط البيت ونمط الحياة فيه ضمن الإمكانات المتاحة، وقد انصاع الجميع لها، أمي وأختاي وأبي، وأقنعتنا جميعاً أن أي مكان يصبح صالحاً للعيش عندما يصير نظيفاً.

وهكذا بدأنا معاً، ثم وضعت خطتها التالية بهدف إخراج الوالد من أزمته المالية وإعادته للوقوف على قدميه، وقد استطاعت من خلال الاستفادة من مركز والدي في العشيرة أن تدفعه لتأمين بعض القروض والسعي لإعادة البناء من جديد.

في فترة انتقال زوجة أبي إلى بيتنا في حي باب النيرب، انتقلت سوريا من النظام الدكتاتوري بقيادة الشيشكلي إلى النظام الجمهوري بزعامة القوتلي، وانتقلت أنا إلى مدرسة التجهيز الأولى الحكومية التي سميت فيما بعد ثانوية المأمون وتركت مدرسة (التيرسانت) الفرانكوفونيّة الموقرة، وانتقل بائع (السحلب حليب) أبو سمعان إلى رحمة الله رغم توفر الحليب في تلك الأيام، وصرت أفكر ماذا يمكن أن يفعل الورثة بإبريقه

الأصفر الهائل العجيب.

كنت أتمنى رغم التحولات العاصفة، ورغم البرد، ورغم عدم انتباه الطالبات إلى شعري الجعد ووسامتي الصفراء، وهن ذاهبات وعائدات من مدرسة التجهيز الأولى للبنات، كنت أتمنى أن أتحول إلى ديناصور كبير أو فيل حتى أتمكّن من شرب إبريق (السحلب حليب) دفعة واحدة، لأستطيع التغلّب على الوحدة الهائلة التي تصيب جسدي، والبرد القارس الذي يصيب الأرض.

كنت حينها في المرحلة الثانوية، وكانت الأختان في باحة الدار تنظفان البلاطات الحجرية النافرة، وتنظران بحنان إلى الركن الفارغ في باحة الدار وتتذكران، حركة الأغنام أيام كانت الأغنام، كانت الأختان في ماضي الأسرة المجيد تشاهدان جهود التيوس المستنفره، وأعمال الحب البرئ التي تقترفها الأغنام ولا تستطيعها الأختان فتنتبهان بشكل خاص إلى حركة الخروف ومتابعاته وسرعته ثم إلى نظرات العرفان في عيني الغنمة التي كانت بعد انتهاء المطارحة، تستدير برأسها لتقول بلهجة ممتنة ماع... ثم تهوي برأسها على زنبيل التبن لمتابعة اللاتهام، والأختان في الكثير من البكاء والتمنيات وفي الوحدة الجارحة والجوع المقيم كانتا تلتفتان إلى جسديهما وتصرخان ماع.... دون أن يسمعهما تيس ضال فيفهم.

والآن وفي غياب الأغنام عن باحة الدار لم يعد للأختين سوى الذكريات. والأخ الصامت البعيد، وكنت في تلك الأيام بعيداً وحيداً، فعندما تعرّف الطلاب في مدرسة التجهيز الأولى إليّ، وعرفوا بأنني من سكان حي باب النيرب وأعرف اللغة الفرنسية بطلاقة كاثوليكية كانوا يستغربون ذلك ويحسون بالخوف وينتبهون كثيراً إلى حركاتي كأنما سأنقض على واحد من الطلاب للألتهمه، فالطلاب في المدرسة يغلب عليهم أنهم من أحفاد تجار المدينة العريقين وغالبيتهم يسكنون في حي المحافظة والجميلية والسبيل وينظرون إلى سكان حي باب النيرب نظرة العلماء إلى العظايات والحيوانات المنقرضة، وطلاب هذه الأحياء ضحايا ماتحشوه أمهاتهم في رؤوسهم من ملاحظات ومحظورات عن ضرورة الابتعاد عن الأولاد الذعران الذين يسكنون حي باب النيرب وما يجاوره من غابات، وكنت أنا في عرفهم واحداً من هؤلاء الذعران، ففي مدرسة (التيرسانت) كان منزلنا في المحافظة يؤمن لي التغطية والحماية ويجعلنا في مرتبة واحدة مع أبناء الأسر العريقة، أما وقد غاب البيت، فلم يعد تشفع لي ألبسة ولالغة، وقد بذلت جهداً كبيراً لتغيير الصورة حتى نجحت وتمكنت بعد المشاركة مع الأساتذة في المناقشات وبعد ذكر العلامات والحصول علىالثناء بسبب ا رتفاع علامات المذاكرات والامتحانات، بعد ذلك استطعت أن أحظى بالحسد والانتباه بسبب تفوّقي الملحوظ في أغلب المواد، وقد استدعى ذلك أن أحظى بحفاوة الأساتذة وإنتباههم، وبخاصة أستاذ اللغة العربية (ناصيف الكاملي). الذي أحاطني بالمودة والرعاية وبدأ يسخر

من خلالي بالأسر الموسرة وأولادها محاولاً أن يؤكد أن الموسرين يمتلكون بالإضافة إلى المال. قسطاً من كبيراً من الغباء يفتقر إليه غيرهم، وقد شدت هذه الملاحظات من أزري رغم المبالغات التي تتضمنها، ورفعت من معنوياتي، فصار الأستاذ المذكور ولسانه من أحب الأشياء إلي.

وفي المرحلة التالية: لهذا الحب وجدت نفسي عضواً في الحزب.

وفي المرحلة الثالثة: تم ترشيحي لمتابعة الدراسة في الاتحاد السوفياتي بعد أن حصلت على مجموع مجيد في امتحانات الثانوية، ولم يكن أمامي سوى أن أرتب حوائجي وأحمل أحلامي... وأودع الأهل والحي والناس وداعات سريعة، وقد دفعنا إلى ذلك اعتقاد سائد، تعلمناه من مثقفي الحزب وهو أن الحنين إلى الأسرة والوطن يضعف المناضلين ويتعارض مع الهوى الأممي الذي يجب أن يستأثر بكل شيء، لذلك وفي لحظة الوداع لم أنتبه إلى الدهشة الغريبة التي جففت عيون الحشد وأيبست قلب الأم والأب والأختين المتقرحتين لذلك صرخت زوجة أبي فيّ قائلة عد وقبّلنا جميعاً، فربما لن ترانا بعد ذلك.

وكان الضباب يغمر الصباح.... وقطيع من الأغنام يطل برأسه من طرف الحارة.... ومعي حقيبتان من حقائب زوجة أبي.... ونسخة بالعربية من كتاب العقب الحديدية. والتفتت كأنما لأشاهد بائع السحلب بإبريقه وصرخاته يطل من الطرف الآخر للحارة، غير أنه لم يطل. بعد الانتهاء من الوداع الحميم، دخلت سيارة الشيفرولية... التي ستقلني إلى مطار دمشق... ومنه سأطير إلى موسكو... وفي الطائرة أحسست أنني أكثر حرية وأكثر خوفاً، وعندما تمعنت في بياض المضيفات الروسيات أدركت فضائل السفر واضطراب القلب فعندما تكون الغيوم تحت الكائن وتكون الطائرة المعدنية أقرب إلى الله، فلابد وأن يكون القصاص.

قربي على مقعد الطائرة، عامل من عمال السكك الحديدية ذاهب لإتباع دورة هناك، لم أتحدث معه كثيراً، كان قرب النافذة وكنت أضطر بين الفينة والفينة أن أمط رأسي إلى النافذة لأشاهد الغيوم.... ثم لأعتذر منه على المضايقة، ثم أتابع الحركة في الكرسي المجاور حيث قعدت امرأة دمشقية وابنتها الصغيرة، وقد استطعت أن أستحوذ على اهتمام الابنة الصغيرة الجميلة التي تجاهلت محاولاتي أول الأمر، بعد ذلك صرت أحرك وجهي حركات غريبة مما أثار خوفها ثم دهشتها، بعد ذلك أخذت تضحك وهي تشير إلى أمها لتنبهها إلى وجهي.... فانتبهت الأم... ونظرت إلي نظرة شكر، وطلبت من ابنتها أن تهدأ حتى لا انزعج.

بعدما يقارب ثلاثين عاماً وأنا قاعد للتذكر والكتابة، وعندما وصلت إلى ركوب الطائرة، تذكرت فلما من بطولة (جاكلين بيسيه) فاستعدت بقوة مشهداً مؤثراً حدث في الطائرة، حيث

جلست البطلة مصادفة قرب رجل... وبعد تعارف بسيط تحدّث إليها الرجل عن وفاة زوجته وعن وحدته وعن حاجته للحب وقد عبر عن ذلك بطريقة مؤثرة أدمعت لها عينيها، وبعد برهة نهضت البطلة إلى مؤخرة الطائرة لتدخل إلى المغاسل، فتبعها الرجل وطرق عليها الباب ففتحت فاقتحم عليها خلوتها فاندهشت، وعندما امتد بيده على صدرها وعنقها فهمت حاجته إليها ولكونها أبدت تعاطفاً من حالته فقد تركته يفعل، وكان ذلك عندما اقتربت الطائرة من المطار وبدأت الاستعداد للهبوط.

فعندما اقترب الرجل من البطلة ورفع لها ثوبها وداهمها بنفسه، رفع قبطان الطائرة رفارف الأجنحة وحرك عصا القيادة حركة حاسمة، وعندما بدأ الرجل تحركاته اللاهثة، بدأت الطائرة بالارتجاج والارتجاف استعداداً للهبوط، وعندما وصل الرجل إلى الذروة، حطت الطائرة على الأرض، وتطايرت الشظايا بسبب الاحتكاك العنيف، وعندما بدأ الرجل يزرر نفسه وألبسته، نهض الكابتن ورتب نفسه على المرآة واستعد للنزول.

ثم خرجا معاً... المرأة والرجل وهما يرتبان هندامهما وينظران إلى بعضهما بدهشة وابتسام ثم تابعا الطريق إلى باب النزول بعد أن حمل كل منهما حوائجه القليلة، وقريباً من سلم الطائرة كانت امرأة شابة تنتظر الرجل، فركض إليها وبادرها بالعناق... ثم انتبهت المرأة التي كانت في الطائرة وتابعت بمودة الاستقبال الحار... وعندما التفت إليها الرجل صاح إنها زوجتي مشيراً إلى المرأة الجميلة قربه، كانت فتاة الطائرة قد ابتعدت ولكنها سمعت، عند ذلك ضحكت بقوة... بقوة... حتى طارت الدموع الجارحة من وحدتها وعينيها، يالالأكاذيب الرائعة.

* وياعواد عندما كنت في الطائرة لم تكن تمتلك خيالاً خصباً مثل خيال الرجل في الفيلم ولا امرأة جميلة تقعد قربك وتستجيب إليك.

كانت وجوه المضيفات الجميلات جادة ومتجهمة كأنهن في غرفة للعناية المشددة فقط كن مستجيبات للعمل وعربات الأطعمة.... كانت الغيوم التي تحلق طائرتك فوقها، تهبك شعوراً عميقاً بالسعادة والتفرد، وتهب جارك عامل السكة الحديدية شعوراً بالانزعاج بسبب محاولاتك المتكررة مطّ رأسك ورقبتك للاقتراب من النافذة ومتابعة الفضاء الواسع وجباله البيضاء العجيبة.

في المطار كان الناس في حالة استعجال ولا تبدو على ملامحهم فرحة السفر، أو الوصول، انتظرت الحقائب ثم حملتها وخرجت إلى الباب... كان البرد لطيفاً ولا يسفع الوجوه كما هو البرد في بلادك، وكانت حركة الرياح هادئة، والرطوبة عالية.... وقفت في طابور الانتظار حتى تحصل على سيارة تكسي، وعندما جاء دورك صعدت... وأعطيت العنوان إلى السائق فاتجه بك إلى سفارة بلدك هناك، ومن هناك بدأت المحاولات لترتيب الاتصال مع الجهات المعنية لتأمين استضافة عدد من الطلاب

القاعدين مثلك والذين حضروا للدراسة.

قضى بطلنا السنة الأولى مدخلاً رأسه بين دفات المعاجم وكتب تعليم اللغة الروسية حتى يلتحق بالجامعة، في حين كان الأصدقاء يسعون باستماتة لدفن رؤوسهن في صدور الفتيات الروسيات المستغربات، وقد استطاع أن يحقق معدلات ممتازة مقارنة بخيبات بقية الطلاب من بلده.

لكن معدلاته الممتازة هذه لم تستطع أن تخلصه من مرارة عزلته وخيبة وسائله، الفتيات كن كثيرات، والفتيان أيضاً، وكان وحيداً، ونهر موسكو غزير والماء يتدفق بقوة تختلف عن النهر الذي لا يتدفق أبداً في مدينة حلب، والماء في نهر موسكو سميك كأنما ذوب فيه حلف وارسو كل الرصاص الذي في الحلف.

عصافير الدوري عند الصباح في موسكو، لا تخاف البرد، تقفز خلف زجاج الشبابيك وعلى الأسطحة، وعلى أطراف النوافذ، ولكن الذي يميزها أنها عصافير سوداء كأنما أفزعها الثلج ببياضه الواسع وبرده العميق، فتحالفت مع المداخن الكثيرة، لتكتسي بالسواد وتساهم بتلوين المشهد متناسية ريشها الأشقر البعيد. كل شيء يبدأ عندهم من الأبيض القاني، أو الأشقر اللاهب، ولكنه وبفضل المداخن الكثيرة يكتسي بالرتابة والانتظار، لذلك يتحدثون كثيراً عن التلوث الذي يؤدي إلى كثرة الصواريخ وندرة البندورة، ومما يثير الانتباه في موسكو، الأبنية المميزة التي بنيت في عهد ستالين، أبنية ضخمة عظيمة عالية وتعلوها نجمة عالية وعندما يتحدثون عن الزلازل فإنهم يؤكدون أنها إذا أصابت موسكو، فإن الأشياء الوحيدة التي ستصمد للهزات، هي المؤلفات التي كتبها تشيكوف ودستويوفسكي وبوشكين وتولستوي،

ولأن بطل الرواية يشبه عصافير موسكو، ويميل إلى المداخن والهباب، وفي زواياه صفرة واستغراب، فقد لفت انتباه العاملة في البوفيه التي كانت تشبه قليلاً زوجة أبيه، ولكنها شابة وتحب الهدايا، وعندما التفتت إليه، التفت إليها.

فلماذا عندما يلتفت بسرعة إلى زاوية أي شيء أو طرفه ينتابه شعور خاطف أن الأغنام هناك وهذا الإحساس يدخله في الشعور بالألفة وبأنه في بيته وبخاصة عندما تدرب على اللغة الروسية والبرد، ودفعه التضامن الأممي للاستجابة إلى نظرات ومودات عاملة البوفية الحزينة، عندما سار معها على ضفاف نهر موسكو، سألها عن سبب حزنها، ثم تساءل باستغراب عن المبررات، فما دامت تابع كلامه موضحاً، مادامت تعيش في دولة العمال والكادحين فعليها أن لا تحزن أبداً، ويبدو أن الفتاة أساءت فهمه، لذلك تركته وحيداً على ضفاف نهر موسكو وذهبت إلى زاوية الأغنام.

وعندما التقاها مرة ثانية وسألها عن سبب غضبها منه، همست في أذنه قائلة:

- لست غاضبة منك لكنني قرأت برنامج الحزب ولم أجد فيه أي شيء يخص الفتيات الوحيدات، فاستغرب منها هذا الكلام، وتركها ومضى إلى الكتب ليتأكد من ذلك.

- صديقه عدنان قال له بغضب وسخرية: عندما تتعرف على فتاة وتذهب معها إلى جهنم الحمراء وتخلع الفتاة ألبستها وتخلع أنت ضراب السخن والأفكار، فهذا لا يعني أنك تمارس الزنى بالنظام الاشتراكي، ثم إن الفتاة، أية فتاة هنا لاتطلب منك أن تتقرب منها بعد أن تبرز لها موافقة الحزب، ثم أن العلامات الكبيرة في مادة اللغة الروسية والمادية الديالكتيكية وبوشيكن، وزيارة ضريح لينين مرتين في الأسبوع، كل ذلك لن يخلصك من الوحدة والليالي الطويلة والعض على الأصابع بعد أن توقفت عن العض على الأحرف اللثوية.

كلام صديقه أربكه وحوّل وجهه الغضاري الدسم إلى الأحمر الكاريبي الشائط غضباً لذلك نظر إلى صديقه باعتزاز مشهود لأسرته وعشيرته وشكك بأخلاق الصديق وبضعف التزامه وكاد لولا المحاولة الأخيرة لضبط النفس التي اعترضت طريق انفعالاته، كاد أن يتهم صديقه بالعمالة للحلف الأطلسي، لكنه كزّ على أسنانه وكتم فكرته داخله محاولاً أن يستفيد من هذه التهمة في مناسبات أكثر حرارة وحماسة ومبدئية، بحيث لا يكون للوحدة المريرة وسوء الفهم والعض على الأصابع مكان.

- أما عن الصديق السالف الذكر عدنان والمتهم بالوسامة وضآلة الأخلاق. والعمالة للغرائز، فقد قرر هذا الصديق أن يخرج صديقه السمني من صفرته، وعزلته وتفوقه وتعسّف محفوظاته، بعد أن وصل إلى حقيقة مفادها... أن التّفوق لعنة وهو أول الطريق إلى الغباء.

فجأة قرر السيد عواد السمني تغيير اسمه، وهل تعتبر مدينة بطرسبورغ التي أصبح اسمها لينيغراد أفضل منه، ثم أنه تغير مثل المدينة تماماً وانتقل من النظام العشائري إلى الوعي الأممي، وأصبح يبغض العشيرة وأغنامها وأسواقها ومراعيها، فحق عليه التغيير، إضافة إلى أن الكثيرين من اللامعين في الحزب انتقدوا اسمه.

- اسمك عواد، بأي وجه ستقابل المكتب السياسي والأمين العام، هكذا قال له أحد الرفاق منتقداً اسمه، لذلك كان ضرورياً أن يدعو إلى اجتماع في غرفته بمبنى السكن الجامعي... ثم تقرر أن يكون في بوفيه الوحدة السكنية بسبب ضيق المكان في غرفته، ثم تساءل لماذا يضطر الإنسان لتغيير اسمه، وعندما فكر عميقاً وصل إلى إجابة ربما بسبب حرف (العين) في أول الاسم، (عواد) أي اسم... وأية عشيرة، وليس لديه أغنام ولا أعواد ولا عود ولا عصا ليهش بها وليصنع بها مآرب أخرى، ثم إن حرف العين يربك الفتيات الروسيات فيخطئن في لفظه، ثم يدخلن في الضحك، فلماذا يفعلن معه ولا يفعلن ذلك مع صديقه عدنان والعين عندهما واحدة وهي متربعة في أول الاسمين، المشكلة

إذاً ليست في العين، المشكلة في انتساب كل اسم إلى بيئته، فاسم (عواد) ينتسب إلى بيئة بدوية عشائرية، مهنتها الرعي ومتابعة القطعان والحداء.

أمّا صاحب الاسم (عواد السمني) فشيء آخر مختلف، فهو سليل المدارس الطائفية ويجيد اللغة الفرنسية إجادة كاثوليكية، وزوجة أبيه من حي المحافظة الراقي المرتبط مباشرة بأحدث منتجات الغرب والشرق وفي مقدمة ذلك (الويسكي والسيكار) الهافاني، وهذا السيكار الذي يسيل له لعاب الغرب الوقور، ويتوفر في موسكو بكثرة، تدفع الطلاب العرب المدعومين من ذويهم بالعملة الصعبة، للتعامل معه -أي السيكار- كما يتعامل الأطفال عندنا مع أصابع جوز الهند، هذا (العواد) الذي انتقل من النظام الرعوي في بيت الأجداد إلى التزمت الجزويتي في المدرسة الفرانكوفونية (التيرسانت) إلى الانفتاح الأممي بعد الأزمة الاقتصادية، ثم إنتقل إلى (موسكو) العظيمة في المدن الكبيرة بالفريسيين والأبناء، بنهرها الرصاصي، وساحتها الحمراء وقد تسورت بالفتيات الذهبيات.

وهاهو وقد عاصر كل ذلك، بالإضافة إلى التفوق والعادة السرية، ألا يحق له أن يتمرد على اسمه ويغيره، إنصافاً للمراحل التي عبرها وانتقل إلى سواها.

- في موعد الاجتماع في (بوفيه) الوحدة السكنية، اجتمع لفيف من الطلاب العرب، والفتيات الروسيات المدعوات، وتحلقت الجموع وسط البوفيه، بعد أن دمجت عدة طاولات، فتحولت الجلسة إلى مؤتمر مصغر، مما أثار انتباه بعض الطلاب في طرف البوفيه من جهتي اليمين واليسار.

بدأ الاجتماع بتوزيع المشروبات الباردة والساخنة، وتبادل النظرات والضحكات ثم تقدم حازم الصفدي الذي يتابع دراسة الإخراج المسرحي واستعرض أهداف الاجتماع وأسبابه وضروراته ونوه إلى الآلام والمشكلات وحالات المغص والتشنج التي يسببها الاسم بسبب اقتران حرف العين بالواو، مما يؤدي إلى العواء، إضافة إلى اغتراب صاحب الاسم عن اسمه وتأثير هذا الاغتراب من الناحية الفلسفية على أخلاقه، ومن شأن ذلك أن يمهد لفصله من الحزب، وإذا حصل هذا المكروه لاسمح الله فإن صاحبنا يقصد صاحب الاسم، يفضل الانتحار في نهر موسكو على البقاء في مثل هذه الحالة، لذلك، نفتتح بعد زجاجات البيرة والكونياك والفودكا، باب الترشيحات، ويحق لكل مشارك أن يرشح اسمين يسجلهما صاحب العلاقة في سجل الشرف وبعد ذلك يتم التصويت على الاسم الأحسن والأنعم والأكثر ليونة ورشاقة.

- تريدنا أن نبحث عن اسم لشاب مناضل مثل صديقنا عواد....أم اسم لراقصة.

- ومالهن الراقصات ومالها أسماؤهن، صاح رافع الجهني وهو

طالب من الجمهورية العربية المتحدة، الأقليم المصري، مستنكراً...

- إذا كانت العين هي المشكلة فأنا أقترح استبدالها بحرف آخر، وليكن حرف القاف...

- صاح الجميع (قواد) وانخرطوا بالضحك العميم.

هكذا يفعل الرفاق الصاخبون بالديمقراطية، ويحولون الضحكات التي ترتسم على وجوههم إلى لعنات ترتسم على وجهي، وإلى أسئلة ترتسم على وجوه القاعدين في الزوايا وهم في حالة إصغاء وانتباه، إلى حيث يمكن للأغنام في باحة دارنا أن تكون، ويبدو أنهم أحسوا بما يحرك مخيلتهم فاندفعوا للتأويل، وبعضهم متيقن أن نواة لحزب سياسي قد تشكلت، فاندفع الفريقان، الفريق الوطني باتجاه السفارة لتقديم تقرير، والفريق المضيف إلى الجهات الأمنية المسؤولة لأخذ الاحتياطات.

ولذا قررت اختتام هذا الاجتماع الفاشل، باهظ الثمن والذي كلفني بالإضافة إلى الروبلات العديدة الكثير من التجريح والسخرية، فنظرت في وجوه الأصدقاء الأوباش، والصديقات المستغربات وصحت، أيها التافهون، ياسقط المتاع والأمم.

لقد نظرت إلى المسألة باهتمام بالغ، حيث اعتبرتها بمثابة ولادة جديدة لي يرافقها اسم جديد، ولكنكم أجهضتم الولادة والاسم، (وقيصرتموها) بمعنى جعلتموها ولادة قيصرية عسيرة، وفي هذا الكثير من النذالة والتطاول ثم خبطت بقبضتي على الطاولة فتناثرت قطرات الماء من الكؤوس القريبة على وجهي، فشعرت مدام بوفاري القاعدة قبالتي وقرب صديقي عدنان بالحزن عليّ بعد أن أفهمها عدنان لب المسألة، فنهضت إلي وأمسكت رأسي وقبلتني أمام الحشد في حالة اعتذار عن أفعال الجماعة اللاهية، ولكن هيهات أن أقبل فصرخت، شكراً يا آنسة، ولكن هؤلاء الأوباش يستاهلون أكثر من ذلك.

- ثم نهض عدنان من الطرف المقابل وقال: لفها بقا يا.... وهاي كاس الرفيق شامل... فرفع الجميع كؤوسهم وكرعوها دفعة واحدة، وأنا تيبست الكأس في يدي والغصة في حلقي وآثار القبلة الحارقة على خدي.

كيف قال عدنان ببساطة هذا الاسم الذي تكتمت عليه طويلاً وقررت أن أجعله مفاجأة الجلسة وقاصم ظهر الأسماء المقترحة جميعاً، فلقد رأيت فيما يرى النائم ملاكاً بنياً وله فم متعدد الدلالات، والشفاه ثم اقترب إلي من جهات كثيرة وهمس في أذني دفعة واحدة أنت، ويقصد أنا، أنت كائن واسع الانتشار شديد التوحّد والكلية، عارم بالرموز والصيغ، ولك عشرة أصابع توازي عشر قارات، لذلك فهمت كما يفهم النائم أنني كائن شامل، ولست عواداً ولا بطيخاً وعلى ذلك فإن مايلائمني أكثر من جلدي هو هذا الاسم وأقصد به اسم شامل الذي قفز على

لسان صديقي عدنان مصادفة، ولكنها مصادفة تشبه الاغتصاب.

وحين تم تعميدي بالاسم الجديد بدأت أشعر رغماً عني بشمولية الاسم وتعددية الحالة التي أعيشها، ثم تبادلت مع الأصدقاء القبلات فاستغربت الفتيات واعتبرن أن في الظاهرة انتقاصاً من أهمية خدودهن وشفاههن، وقد تطلّب الأمر منا جلسة مطولة للشرح، انتهت باصطحاب كل صديق لصديقته سواي أنا...

هكذا ينفرد الشامل بشموليته، ليعوي في ظلال وحدته مثل ذئب جائع ومرير، ولكنه ذئب ذو ملامح شمولية وعلى طاولته كتب كثيرة تحتاج إلى قراءة، ومسائل كثيرة عالقة تحتاج إلى حل، وكف جانحة تحتاج إلى الذكريات.

بعد أيام من الاسم الجديد، جاءت رسالة طويلة وغريبة إلى شامل... موجهة إليه من زوجة أبيه، وفي الرسالة سؤال عنه واستفسار، وكلام عن الأوضاع في البلد، وأن الاستعدادات جارية للعودة إلى بيت المحافظة وأن الأوضاع المالية أصبحت بخير، وتستطيع أن تأخذ راحتك في الصرف، أما عن أخبار صعود الناس عندكم إلى السماء بالصاروخ، فإن الناس في حارة باب النيرب، لم يصدقوا الموضوع، وقال شيخ الحارة للناس، أن القمر... ملك من الملائكة الكبار وهو يستطيع أن يضرب بجناحه، الصاروخ ضربة... يوصله فيها إلى وادي سقر والعياذ بالله.

أختك عبلة.. أصبحت سمينة مثل البقرة، من شدَّة الحزن عليك، وصارت تمشي على أربع، وتتذكر الأيام الماضية وتقول... ماع. أما أختك عاتكة.. فقد اصبحت صفراء ونحيفة مثل العصا. وهي متفرغة لكتابة شديات ومواويل عن غيابك، وغياب فلسطين، وعندما تسمع اسم جمال عبد الناصر من الراديو... تتذكر اسمك وتقول... بأن أحداً لا يستطيع أن يحل مشاكل الأمة، غير شقيقها عواد والزعيم جمال عبد الناصر، وعندما تغلبها الدموع، تقترب من والدها وتسأله... ألم يعد في العشيرة رجال يرتكبون الجرائم حتى نقبض عليهم ونحبسهم عندنا في البيت، وعندما يستغرب والدك، تقول له أختك:

- لا أحب أن يقع أولاد عشيرتنا في سجون الحكومة حتى لا يتمرغ اسم العشيرة في الذل والبهدلة ...

ثم تذهب عاتكة إلى جهاز الراديو... لتسمع برنامج وراء القضبان.. وفي إحدى المرات جاءت إلي مولوله وهي تصيح... هل تعرفين يا أمي الثانية. بأن أخي عواد محبوس في موسكو، وراء الستار الحديدي، وحين سألتها عن معنى كلمة الستار الحديدي.... قالت: بأنها لا تعرف... لكنها سمعت الكلمة من إذاعة لندن وصوت أمريكا.. فإذا كنت ياولدي يا عواد.... محبوساً كما قالت أختك عاتكة... فأخبرنا.. حتى نوكل لك محامياً فهيماً... يستطيع أن يخرجك ويعيدك للبلاد.. أمك قاعدة في زاوية الغرفة القبلية، ساكتة (لا من تمها ولا من كمها) وفي عينيها كلام

كثير.. وأبوك استعاد عافيته ونشاطه وهو يذهب كل يوم إلى معمل الألبان.... ويسأل عنك.... ثم قفزت فجأة إلى آخر الرسالة وكتبت.

(أمك نائلة....)

تلك هي الأسباب التي دفعت أمي للقعود في الزاوية صامتة ومتهدلة، ووحيدة، ودفعت زوجة أبي لتحل محلها وتكون أمي... ودفعتني لأكون وحيداً.. في مدينة وحيدة ونهر وحيد وكنت رغم وحدتي انتبه إلى جمال ناتاشا صديقة عدنان الذي أخبرني أن له ابنة عم وحيدة في حلب، ولأنها لا تستطيع أن تظل وحيدة وجميلة فقد أحبته، ناتاشا تحب عدنان أيضاً... وعندما أتأمل وجهها الوحيد، تحاول أيضاً أن تتأمل وجهي لتفهم أسباب الوحدة التي أعيشها، فهي تستغرب كيف يمكن لشاب مثلي أن يكون وحيداً ومعه كل هذه الدولارات، وهو يستطيع أن يدخل إلى (السوق الحرة) ويشتري مايشاء.

قال لي عدنان الذي صمم بينه وبين نفسه أن يخرجني من وحدتي حين كان في المطار...

وكنت أمشي خلف وحدته ومحفظته الكبيرة، ومعي وحدتي ومحفظة كبيرة أيضاً، ثم قال لي بأنه مضطر للعودة إلى حلب، لأن ابنة عمه الوحيدة ماتت لذلك قرر العودة إلى حلب، ولكنه سيرجع إلى موسكو من أجلي، حتى لا أظل وحيداً، فالوحيدون بشكل مبالغ به يموتون هكذا قال لي.. وقد تأكد لي ذلكِ عندما نظرت إلى نهر موسكو.. والثلج الأبيض الذي ينزل أبيض، ولكنه يصير بسبب الدخان والعصافير الرمادية رمادياً مثل نهر موسكو. يبدو أن اختياري للاسم الجديد له مغزى كبير، فاسم شامل يدفع الإنسان للخروج من وحدته . يدفعه للالتحام بالماء والهواء كأنه واحد من العناصر، أما اسم عواد الذي تخلصت منه فماذا يمكن لصاحبه أن يكون سوى حامل عود كالعصا، وحوله ماعز وأغنام وأحزان تملأ روح أختيه عبلة وعاتكة وتفيض على ضفتي النهر.

قال لي صديق روسي اسمه الكسي: مثل اسم رئيس الوزراء آنذاك، بأن نهر موسكو يصبح وحيداً عندما يدخل إلى مدينة موسكو، أما عندما يخرج من المدينة، فإنه يصبح أخضر، وأحياناً يتحدث إلى الفلاحات.

أما في موسكو فإن الفتيات الموسكوفيات يمشين على ضفتي النهر، ولا يلتفتن إليه لذلك يحس بالوحدة والرماد.

قالت له ناتاشا: بعد أن سافر عدنان بأن اسمها الحقيقي (ونستون تشرشل) وأن أمها اختارت لها هذا الاسم اعترافاً بالدور الذي لعبه الانكليز في محاربة الألمان لكن الموظف في السجلات رفض تسجيل الاسم وكتب اسم (ناتاشا) عوّضاً عنه، ثم نهض وصرخ غاضباً في وجه أمي: عندما يسمّون ملكة بريطانيا باسم (ستالين) يمكن النظر في الأمر.

وحين وصل أبي وأمي إلى المترو الذي يشبه نهر موسكو صاح في أمي: لماذا لم تسميها ستالين من الأول وتخلصينا من ملاحظات الموظف اللعين؟! عند ذلك قالت له أمي دامعة العينتين: لم أكن أعتقد أن اسم (ونستون تشرشل الذي كان حليفنا في الحرب ضد الألمان) يثير غضب الموظفين الروس.

بعد ذلك صار اسمي ناتاشا، وبدأت العلاقات تصبح سيئة بين بلادنا وبلاد الانكليز بسبب ملاحظات موظف السجل المدني، ثم خسر تشرشل الانتخابات، وحزنا على خسارته، صدرت المقالات والنشرات التي تحذر من الديمقراطية الغربية وقد بالغ بعض العقائديين وطالبوا بإلغاء الانتخابات، ومن يومها والناس يخافون من صدور قرار يقضي بإلغاء نهر موسكو ومنعه من التدفق والجريان.

خلال فترة الشرح التي قامت بها ناتاشا صديقة عدنان لتوضيح ملابسات تغيير اسمها وصلتني عدة رسائل من الأهل وفيها إشعارات بالتحويل، فذهبت للسفارة عدة مرات للقبض والاستفسار وناتاشا تنتظرني خارج السفارة لتكمل لي الشرح والتوضيح. وخلال حديثها عن الملابسات التي رافقت تغيير اسمها أحسست نحوها بالود الكثير لأن أحداث تغيير اسمي لم تكن أقل شأناً عن أحداث تغيير اسمها، فعندما وصلت إلى قرار نهائي بضرورة تغيير الإسم واختيار الاسم الهائل (شامل) غمرتني رعشة من الفرح والتفاؤل فذهبت إلى نهر موسكو وصرخت بالاسم الجديد حتى يشاركني النهر مشاعر الفرح وليخرج من هيئة الرصاص التي تجعله يشبه جندياً وحيداً ذاهباً إلى الحرب، عند ذلك شعرت بالغصة والألم، فعندما ذكرت كلمة نهر وجندي وحيد ذاهب للحرب أحسست بالمدينة والنهر وناتاشا، وعاملة البوفيه وبدأت أفهم أكثر، فالناس هنا يعيشون الوحدة ليس بسبب وحدتهم، بل لأنه في رأس كل واحد منهم مجموعة من الجنود الوحيدين الذاهبين إلى الحرب، وهم يسيلون بهدوء ورصاص مثلما يسيل نهر موسكو، لذلك تمر الفتيات الوحيدات قرب النهر ولا ينتبهن إليه، فقط يتذكرن نهر الجنود الذي يسيل إلى رؤوسهن وقلوبهن ودمائهن، ورغم أن ناتاشا لم تتحدث عن الجنود ولا عن النهر لكنني وعندما أتأمل وجهها، الذي يلتمع مثل شيء لا أتذكره، أحس بالنهر وقد تحول من الرماد إلى الذهب، وأحس بعمق موقف الموظف الذي أطلق اسم ناتاشا على الفتاة التي بدأت أحبها وأفهم معنى النهر... ثم بدأت بكتابة رسالة إلى زوجة أبي وأهلي أعلمهم فيها بالتغيير، وبأن اسم عواد لا يليق بالنتائج التي تمخضت عنها نهاية الحرب العالمية الثانية، وانقسام العالم إلى معسكرين وسياسة الحرب الباردة وقيام دولة كوبا التي أعادت إلى ونستون تشرشل وسيكاره الهافاني الفاخر الاعتبار، ثم طلبت من زوجة والدي أن تعيد الأغنام إلى زاوية باحة الدار حتى لاتنتحر أختاي عبلة وعاتكة من الحزن علي...

خلال ذلك وصلتني أخبار القضاء على الوحدة بين مصر وسوريا، وقيام نظام الانفصال في سوريا....

كانت الوحدة، كلمة ذات دلالات متعارضة، لكن الوحدة التي كنت أعيشها ذات دلالة واحدة.

في رسالته التي أرسلها إلي... تحدث صديقي عدنان.... من حلب عن الانفصال وأيامه وحالات التوتر، وعدد الناس الذين سقطوا في الساحات دفاعاً عن الوحدة، وتحدث لي عن ناتاشا الجميلة وقال بأن ابنة عمه التي ماتت جميلة أيضاً وبأنه لا يستطيع أن يحب ناتاشا وابنة عمه معاً... وطلب مني أن لا أخبرها بذلك حتى لا تحزن، وبعد أن انتهيت من قراءة الرسالة... بدأت أحب ابنة عم عدنان رغم أني لا أعرفها... وعندما تأخر عدنان... ولم يرجع من حلب إلى موسكو. حدثتني ناتاشا عن ميخائيل بولفاكوف وقالت لي أنهم لم يصرّحوا له بنشر روايته "المعلم ومرغريتا" ولذلك قضى حياته وهو يشعر بالوحدة الشديدة حتى مات...

ثم أوضحت لي، أن روايته (المعلم ومارغريتا) صارت رواية مهمة رغم أن أحداً لم يقرأها، وأن الرواية كما يقول أصدقاء (بولفاكوف) من بطولة (الشيطان) و (المسيح) و(مرغريتا) وهؤلاء الثلاثة غير مصرح لهم بالنشاط داخل الاتحاد السوفييتي، لذلك منعت مرغريتا من الذهاب إلى المعلم لأخذ الدروس.

يالناتاشا ويالعقلها الشديد، أما إذا نظر الواحد إلى وجهها الذهبي وعينيها الزرقاوين اللامعتين فيضطر لأن ينسى ابنة عمه حتى ولو كانت شديدة الجمال وتشبه ابنة عم تعيش في السماء.

عندما كنت أدعو ناتاشا، كانت تأتي معها أحياناً صديقتها كاتيا وكنا نقعد في البيت والمطعم والكافتيريا، كاتيا تنظر إلي وأنا أنظر إلى ناتاشا، وناتاشا تنظر إلى عدنان، وعدنان ينظر إلى جهة المقبرة حيث ووری جثمان ابنة عمه، والناس في بلادنا ينظرون إلى الحكومة وينتظرون عودة الوحدة، وأنا أنظر إلى يد ناتاشا، ثم أمسكها لها لأقرأ لها كفها، وكانت تنسى كفها معي، فتلتمع عيني بالندى، وتضج أطرافي بالأفكار.

ثم وصلتني رسالة من أمي...أعني من نائلة... زوجة أبي.. تقول فيها:

إن أبي كأنما نزلت عليه صاعقة وصار الحليب يفرط في معمل اللبن الذي افتتحه وفتح الله به عليه وأنا أخاف يا عواد يا ابني أن تكون فعلت شيئاً في الغربة يؤاخذنا عليه الله... لذلك فرط الحليب، وما عاد يجبّن ولايلبّن كأنما نظرت إليه عين حاسدة، حتى الآلات سأل والدك عنها المهندس فقال هي أيضاً فرطت وماعادت تنفع لشيء، فقال والدك بأن الانفصال الذي وقع في سوريا هو السبب لذلك فرط الحليب والمعمل ولم تعد مسننات الآلات تتعشق بعضها (أصابع يد ناتاشا عندما تنفتح

تصبح مثل المسننات فتدخل أصابعي بين الفتحات وتتعشق كفي كفها.... ويصير بي كما يصير بالحليب، في بلدنا أفرط، وربما كان ذلك بسبب الخوف من الانفصال) فهل فعلت عندك في الغربة شيئاً يؤاخذنا الله عليه ويضر بنا ويضر باللبن والجبن والسمن والعشيرة.

إذا كنت فعلت فتراجع واستغفر ربك لأن الأوضاع إذا بقيت على هذا الحال فإن التحويل سينقطع وتنقطع المياه). ويا أمي أخشى على الماء أن يصير يباباً وعلى نهرنا أن يصير مجروراً وعلى نهر موسكو أن لا يرجع من الحرب وعلى أختي عاتكة أن تصبح مثل قصبة جافة بسبب قوة المخيلة فينكسر عودها وتضيع. لقد كسرت اسم عواد. إسمي وغيرته، ترى بسبب تغيير اسمي فعل الله بالحليب وبالأهل مافعل، لكنني وبعد أن قرأت رسالة حلب الاخبارية، أحسست بالوحدة... وذهبت إلى الخزانة... وأخرجت رسائلي التي هي درة مؤلفاتي ومزقتها. كأنني بذلك أتراجع عن مسيرة التجديد التي اختططها لهويتي واسمي ووجودي، كأنما أمزق بذلك اسمي الجديد. اسم شامل.

ومن شدة التمزيق والانفعال تلامع في وجهي جسد ناتاشا وثيابها فتابعت التمزيق وأمسكت نهدها الحنون وتأملت الحليب الذي يتدفق منه.

ترى هل يمكن أن يتناثر من صدر ناتاشا حليب كثير، ويصل إلى السموات، ويشكل امتداد لدرب التبانة الذي يضيء في ليل موسكو كما في ليل حلب، ولكنه هنا يضيء بشكل مائل أكثر، ثم أن نهر الحليب هذا الذي سيتدفق من صدرها يمكن أن يكون موازياً لنهر موسكو، نهر في السماء ونهر في الأرض، واحد ذاهب إلى الحرب، وواحد عائد منها، ولكي تكتمل الدائرة سألتف بذراعي على ظهر ناتاشا وأضغط صدرها على معطفي السميك وأنتبه إلى البقعتين المبللتين في مواقع حلمتيها، "عندما ذهبت إلى المرآة وتأملت، كنت شديد الاصفرار، وشديد الحرارة والهوان، وقد أفزعني لوني الأصفر فركضت لأتأكد من عدد الدولارات الخضراء التي في جيب سترتي... وهل ظلت محتفظة بلونها... أم تحولت إلى الأصفر مثلي. وعندما أطفأت الأضواء في الغرفة، وأغلقت عيني شعرت بالبرق الأصفر يجتاحني، فتمنيت أن يصل نهر موسكو إلى غرفتي في الطابق التاسع ويجرفني معه....

ليت أمي نائلة، أقصد زوجة أبي معي الآن حتى يجرفها النهر أيضاً، فلا تصلني أخبار المسننات والحليب وأختيّ عبلة وعاتكة، ثم تهاويت.

بعد مدة لا تستطيع تحديدها نَهَضْتَ. واغتسلت، فهطل الماء أصفر على الحوض، ثم خرجت وعدت إلى السرير ثانية، ثم نهضت إلى الثلاجة، وبحثت عن الأشياء البيضاء لتأكلها، زجاجة الحليب، بيضة، قطعة جبن، عسى أن تتخلص من الصفرة،

وأكلت كل شيء وقع تحت يدك من طعام، وعدت للاستلقاء من جديد... بعد أن أجهدك الطعام، ولكنك استيقظت بعد مدة على طرقات خفيفة، وفتحت الباب فدخلت ناتاشا، فأمسكتها من يدها، وقربتها من السرير وقعدت وأقعدتها قربك، وقالت لك تبدو مريضاً.

فقلت اسمعي... وحكيت لها عن الكلام الذي أصابك والأفكار التي تناويتك وتوسّعت في ذكر رسالة الأهل والحليب وصدرها ونهر المجرة، وقرارك أن تضع يدك على صدرها.

لقد أحست ناتاشا بكل كلمة قلتها وبسرعة قياسية، حررت نهديها، فاقتربت وتأملت، وداهمك البرق الأبيض وغامت عيناك بالرؤيا، فأغمضتهما واقتربت بعدها وضعت ناتاشا يدها على رأسك وقالت: حكايتك مؤثرة، ثم نهضت وأزالت عن جسدها الثياب والمخاوف، وتمددتما معاً وعندما اقتربت منها لتقبيلها منعتك عن ذلك، قائلة: لا أريد لأحد أن يقبلني، وحزنت واسترخى جسدك فيك وبدأت تتأمل السقف وتنتظر نهر موسكو، ولكن ناتاشا استدارت إليك وعانقتك وقالت لك لا تحزن، الأشياء الأخرى أريدها... فقط لا أريد أن تقبّلني من فمي... وأعادتك إليها، فعدت وانتشرت على كل تفاصيلها وملأت جسدك بها، وملأت جسدها بك وبحثت في الينابيع حتى وصلت وتدفأت وخفت فتراجعت، ووصلت فتدفأت.

واستجابت لك واستجبت لها، لكن دون قبلات، مرة، مرتان، ثلاث مرات، وهي تستجيب وتعطي وأنت تعطي وتستجيب، وعندما انتهيتما كانت الصفرة التي سكنت جسدك قد ذهبت كلها وتحولت بفضل حرارة ناتاشا وبياضها إلى شيء في بياض الحليب.

ثم وبعد أن أتممتما أفعالكما عدت للاصفرار المرّ ثانية بسبب من سوء الفهم الذي أصبح قدراً عنيداً يخالط دمك ويلوّن بشرتك، فبعدما وضعتما شيئاً من الطعام وعاونتك على أعداده بأناقة وتنظيم، واقتعدتما الطاولة وبدأتما الحوار، لماذا سألتها ثانية عن القبلة من الفم ولماذا منعتها عنك، وكنت تعرف في طفولتك البعيدة حكاية المرأة التي أعطاها زوجها واحداً وأربعين مفتاحاً، وقال لها حاولي في غيابي أن تفتحي كل غرف القصر المغلقة إلا واحدة، وعندما مضى نسيت الأربعين غرفة وتذكرت الغرفة الواحدة، وعندما فتحتها لم تجد فيها شيئاً، لكنها فقدت بعد ذلك كل شيء، لقد أعطتك ناتاشا مفاتيحها الأربعين، مفتاح الحلمات ومفتاح السرة ومفتاح الوجد والمسرة وخط الظهر والإبطين والنهدين، والخطوط الفاصلة أسفل كل شيء، العنق والركبتين والساقين والخطوط الخضر، والدم اللامع والعينين العائدتين من الحرب، ولكنك، ولكنك عندما تساءلت غصت ناتاشا باللقمة، وابتلعتها بصعوبة ثم مسدت فمها بالمنديل، وأعادت ترتيب أفكارها ثم بدأت تشرح لك وكنت مصغياً، مصغياً حتى أقصى مايحتمله جلدك من صفرة وهوان، وكنت مستغرباً ورطباً، وكانت

ناتاشا تشرح لك دون أن ينتقص ذلك من ذهب روحها ورفعة نهديها.

ثم قالت بحزن وبلغة قوية واضِحة، إنها تحب عدنان.. وأنها لا تريد لأحد أن يقبلها غيره، ولكِنكِ منحتِني كل شيء، هكذا أجبتها.

- المرأة تحتاج إلى الرجل... لأن الوحدة والبرد يقتلان المرأة، وأنا وحيدة وكنت أحتاج إليك.

ثم قالت بأن الجنس غريزة وللغريزة قوانينها، وهي ليست ضد هذه القوانين، وإنما تجد فيها شيئاً عظيماً، لهذا تستجيب لغريزتها بمودة.

أما الحب فهو شيء مختلف، وهي لذلك تحب أن تخص عدنان بعلاقة مميزة، ولا تقبل أن تعطي شفتيها لسواه، ثم سالت على وجهها الدموع وهي تلفظ اسم (أدنان)، فشعرت بحرف (العين) وقسوته وكيف تتعذب الفتيات الروسيات في لفظه إلى الحد الذي تتساقط بسبب ذلك على وجوههن الدموع.

- ولكن عدنان صرختُ، ثم توقفتْ، لكنها أكملتْ، تقصد أن (أدنان) لا يحبني...

- لا أعرف؟ قُلتَ لها غاضباً...

- هذا لا يهم، هو حر في مشاعره، لكنني أحبه.. وهذا شيء يخصني، وعندما يكون موجوداً أحس به وبأنني مرغوبة منه وهذا يكفيني.

غير أنَكَ ورغم قراءتك للماركسية الأولى والماركسية الثانية بصورتها اللينينية المعدلة، وبصورته الثالثة حيث أضيفت إليها المعتقلات ومقرارات المؤتمرات، ظللت في حالة عدم الفهم للايضاحات التي تقدمت بها ناتاشا الرائعة، وظللت مستغرباً ومتسائلاً كيف تحب رجلاً، وتعطي جسدها لرجل آخر، ثم تظل في حالة حب عنيف تدمع له عيناها وتضطرب شفتاها فلا تقدران على لفظ اسم الحبيب كما ورد باللغة الأم، وكدت أن تصرخ فيها قائلاً بلهجة انتقام ساخر ومرير، أن الذي يحب أحداً يتعلم كيف يلفظ اسمه، ولكنك توقفت عن ذلك بعد أن أعيتك دموع ناتاشا فاقتربت منها وعانقتها في حالة من العماء والتقدير. لجسدها، ولغريزتها الرائعة التي دفعتها مرة رابعة للاستسلام إليك، هذه الغريزة التي تضامنت معك، وأخرجتك من وحدتك الصفراء العريقة.

ولكنها نهضت فجأة وارتدت ثيابها، في تأهب شديد ثم تنكبت محفظتها وتحركت مثل جندي وحيد ذاهب إلى الحرب، عند ذلك، شعرت أن نهر موسكو كان معك وقد غمرك وغسل كل شيء فيك وترك الحيرة التي لا تستطيع سوى فتاة مثل ناتاشا، أن تحرك عواملها فيك.

نهر موسكو يخضع للتلوّث، لكنه لا يخضع للقرارات، أسألوا

ناتاشا، عندما تركتني وهي في وضعية التأهب والتنكب وكنت متهدلاً لا متأهباً ولا متنكباً، وكنت أحس بالصداقة وأتذكر عدنان.. الذي أعفاني في رسالته الأخيرة من ضغط الضمير وأوضح لي أنه لا يحب سوى ناتاشا واحدة، وهي تلك الموجودة في رواية (الحرب والسلام) لتولستوي، وأنني أستطيع أن أفعل ما أريد مع هذه الناتاشا الرائعة التي تصيبه بالغباء... وهو بسبب من كسله الدراسي ونقاء محتده وأصله لا يستطيع أن يحب هذه الناتاشا التي غادرت حجرتي منذ قليل وفيها شيء من مائي.... فالأنهار لا تعطي المياه فقط وإنما تأخذها من الكثير من الجداول... لذلك أصبت بالتعرّق.. والارتعاش بعد أن فهمت من الرسالة أنه لا يحق لي أبداً أن أذهب إلى رواية (الحرب والسلام) وأخون صديقي مع (ناتاشا) تولستوي...

- قال لي فاديم.. وهو صديق روسي يدرس معي في تاريخ النقد...أنتم تعيشون أسرى غرائزكم، ونحن نعيش أسرى غرائز غيرنا، فشعرت بأنه يتحدث عن الحرب فأجبته بجفاء ملحوظ، وماهو الفرق؟ فتابع موضحاً... نحن نبذل جهداً كبيراً في صياغة غرائز المؤسسات وحماية هذه الغرائز، أما أنتم دول العالم الثالث وحركات التحرر الخائبة، فلديكم غرائز وليست لديكم مؤسسات، هذا هو الفرق، ثم قال بمرح أنا أكتفي بمبلغ خمسة روبلات مقابل هذا التوضيح. فأعطيته المبلغ، وكان لدي كلام كثير أرد به على الصديق العزيز فاديم، ولكنني توقفت عن المتابعة بعد أن تذكرت ناتاشا التي استطاعت أن تملأ روحي وغرائزي. بعد أن كاد يودي بي.. التوضيح الجائر للصديق فاديم.

- ومتى ستتركينني أقبلك ياناتاشا؟

- عندما أحبك؟

- ومتى ستحبينني يا ناتاشا؟

- عندما أتوقف عن حب (أدنان).

- هل تشعرين بالوحدة ياناتاشا...

- أنا وحيدة دائماً...

ثم نذهب إلى الغرفة ويتبعنا نهر موسكو، وتخرج ناتاشا من البيت، والرطوبة تملأ جسدها ومفارقها، والتعرق والارتجاف يزيغان بصري.... ويعيدان تشكيل ذكرياتي فأذهب إلى الكتب وأبدأ قراءة الصفحات من الأسفل إلى الأعلى، حتى أكتشف أخطاء فاديم، أو ربماتصويباته، فليس غريباً أن تكون ناتاشا هي المؤسسة التي نبذل الجهد والروح لنصنع لها غرائزها، ودموعها وذكرياتها، لذلك تخصصت بدراسة بوشيكن العظيم، الذي يذكرني بالمتنبي، ولا يذكر بأبي فراس، الوسيم الجميل زين الشباب الذي لم يمتَّع بالشباب، لكن طريقة موت الثلاثة: بوشكين والمتنبي وأبي فراس متماثلة كأنما قتلهم رجل واحد، وقد تحفزت لدراسته، بعد أن شعرت بالوشائج نحوه، فبوشكين غامق ويميل إلى الصفرة، وفي ذلك أشبهه، لكننا نختلف في

أشياء كثيرة، وهي أن بوشكين يميل إلى كتابة الشعر، وأنا أميل إلى ناتاشا، وشفتاه ذات أصول زنجية، وشفتاي ذات أصول وجذور صحراوية والغنم في طرف باحة دارنا كثير.

- قالت ناتاشا، أنا لا أحزن فقط بسبب غياب (أدنان) أنني أحزن أحياناً بسبب حزنك...

- فمتى تشعرين بالفرح... سألتُ ناتاشا الحزينة...

- عندما أصاب بعمى الألوان فلا أتمكن من التمييز بين (أواد-وأدنان) وحتى أنجح في ذلك تابعت (ناتاشا) الكلام.. يجب أن تعزل مشاعر الحب التي تحسها نحوي عن قلبك، وتحس نحوي بمشاعر جنسية فقط، عند ذلك ستفرح، لأن الجنس شيء عظيم ويجب أن لا نشغل بالنا بأشياء أخرى ثانوية.

- وهل عدنان بالنسبة لك ثانوي...

- عندما لا يكون موجوداً، ولكن الأنوثة والغريزة والجنس أشياء موجودة وهي أشياء رائعة...

- هل قرأتَ (د.هـ.لورانس)؟

- هل قرأتِ ابن عربي؟...

- لا أبداً...

- لذلك انتحرت ابنة عم عدنان...

- أنا لا أفهم، ردت ناتاشا بعصبية وهي تخلع ملابسها لتضيء الغرفة، (أدنان) يقول إنها جميلة جداً، وهي تحبه، أنا لا أفهم لماذا ينتحر الناس من أجل الحب.

- ومتى يحق للإنسان أن ينتحر؟

- ينتحر عندما يذهب إلى مسرحية، أو اوبريت أوباليه، ويشعر بأنها عمل عظيم، ويمكن أن ينتحر أيضاً عندما يحس بأنها رديئة، وربما ينتحر إذا عطس دون إرادته، ثم التفتت إلي بغتةً وسألت: هل قرأت (تشيخوف)، بعد أن قرأت تشيخوف.. بدأت أتحدث كثيراً عن الانفصال والوحده بين ناتاشا وبيني، وبين عدنان وإبنة عمه... وعن الانفصال والوحدة بين مصر وسوريا... ثم تفاقم الأمر لدي وبدأت أتحدث عن الانفصال بين الحزب وبيني، لذلك استدعيت للتحقيق... وصدر قرار بفصلي من الحزب، ثم بدأت كاتيا صديقة ناتاشا بالإنتباه إلي، والنظر نظرات ذات معنى، لم أفهم منها سوى..... أنها تدعوني لأقبلها من فمها، وقد أعانتني قبلات كاتيا على التوازن، بعد أن امتنعت شفتا ناتاشا عني...

سنتان وكاتيا تنتظر مني كلمة، وناتاشا تنتظر عودة عدنان، وحين ذبلت شفتّاها من الوحدة والانتظار بدأت تكره الانفصال لأنه كما قالت مسؤول عن اختفاء عدنان وانقطاع رسائله، ثم حملت جسدها وبريقها وذهبت إلى أكاديمية الدراسات الشرقية في (طشقند) لمتابعة الدراسة هناك.

وتركتني وتركت نهر موسكو إلى الصفرة العالية والرماد العميق.

ويا ناتاشا الغالية، أيتها المهاجرة، إلى شرق الشرق، لقد فعلتها (ناتاشا) الحرب والسلام في رواية (تولستوي) وتركت موسكو أيضاً، لتبحث عمن تحب، تحت نار الحصار النابوليوني الشديد، وهاهي ناتاشا الشفتين العنيدتين والأشياء الكثيرة اللامعة، تترك موسكو المملوءة بالرجال المستغربين والفتيات الجميلات. وتذهب إلى المطار...

عند الوداع، قالت لي سأذهب لدراسة اللغات الشرقية واللغة (الأربية) حتى أستطيع أن ألفظ اسم (أدنان) بشكل صحيح، ثم عانقتني وقالت... اسم (أود) أيضاً صعب ويحتاج إلى... ثم توقفت...

- يحتاج إلى أغنام، أكملت مسرعاً..

- لم أفهم، قالت ناتاشا...

- هل تعتقدين أن رغبتك في لفظ اسم عدنان بشكل صحيح.. سبب كاف لدراسة اللغات الشرقية.

- طبّعاً قالت ناتاشا: هذا سبب كاف، المهم أن نبحث عن سبب حتى ولو كان صغيراً لنقوم بالأعمال الهامة، ثم إنني قالت ناتاشا: ثم صمتت...

- ستذهبين، قلت لها: وتأخذين صدرك معك، وتأخذين الحليب، ودرب التبانة وتتركينني.

- كاتيا تحبك، قالت ناتاشا، وهي فتاة تستطيع أن تقبلها، وهي بيضاء. وأنا أحب أن أدرس اللغات الشرقية لأعرف مدى الجهد الذي يبذله الناس في بلادكم وهم يتعلمون لغتهم...

كانت عند جدي بقرة جميلة اسمها ناتاشا، وكان حليبها أبيض، لكن لماذا نتحدث عن الحليب، ونهدي لا توجد فيه قطرة واحدة.

- إنني أحس بالحليب حتى ولو لم يكن موجوداً، حتى ولو لم أراه...

- أنت غير واقعي، وخيالك واسع، وأنت من هذه الناحية تشبه (أدنان)..

- ومن نواح أخرى..

- تشبهه أيضاً، لكنني أحب أدنان أكثر لأنك أحياناً تصير مزعجاً...

- أصير مزعجاً كيف.

- تصير مزعجاً لأنك شديد الذكاء، وأنا لا أحب الرجل أن يكون ذكياً، الأذكياء متعبون.... وحبهم قصير العمر... لذلك يرون الحليب في النهد عندما لا يكون موجوداً وعندما يتدفق النهد بالحليب ينسونه وينسون صاحبته حتى ولو كان اسمها ناتاشا...

- وماهو دليلك على ذكائي..

- لونك الأصفر الغامق، ألم تنظر إلى صورة (بوشكين)...

- ولكنه يميل إلى غير اتجاه.

- لم أفهم...

- هو يميل إلى الشعر وأنا أميل إلى ناتاشا...

- هكذا يكفي، أقصد.... أنك... تستطيع.... تستطيع أن.... تضع رأسك فوق نهدي هنا في المطار، وقبل أن تصل الطائرة، ثم تغني لي أغنية باللغة العربية.

أغنية تحبها، كثيراً، بعد ذلك ستنساني ويفرّق الحليب بيننا، عندما وضعت رأسي بدأت أتذكر أغنية لوداع ناتاشا وعند أذني وتحت خدي نهدها الواقف داخل ثوبها، وتذكرت، تذكرت طويلاً أغنية تفي بالحاجة، فلم أستطع، ذهبت إلى الطفولة، إلى المراهقة، إلى الكهولة، إلى الأجداد والجدات، إلى أجهزة الراديو والإذاعات، لم تخطر ببالي سوى أغنية (الله أكبر) التي طالما غنيناها أيام الوحدة... ثم فجأة قفزت إلى رأسي أغنية غامضة بعيدة، وليس لها أية وظيفة في لقائنا الغريب، ولأنها لا تفهم لغتنا بدأت الغناء على صدرها دون مخاوف...

بكره عيد منعيد
ومندبح بقرة السيد
والسيد ما له بقره،
مندبح مرته هالشقرة،
والبقرة إلها نهدين
حليبن من نور العين
واللي رح يشرب منهن

مارح يحزن بالمره.... وبكره عيد منعيد... ومندبح بقرة السيد والسيد ماله بقره.

عندما رفعت رأسي بعد أن انتهيت من الأغنية نظرت ناتاشا في وجهي وقالت:

عيناكَ مثل نهديّ

- أنا!...

- الحليب في نهديّ لا يرى والدموع في عينيك لا ترى أيضا، ولكن الدموع تملأ روحك.

- ليست لي روح .. ولا أعرف ان كانت لي دموع...

- هل تستطيع أن تشرح لي معنى الأغنية الحزينة التي غنيتها،

- أستطيع أن أشرحها إذا كشفت لي عن صدرك لأراه

- أنت شيطان حقيقي وليست لك روح كما قلت ... تعال معي إلى مكان نكون فيه وحدنا.. وجرّتني من يدي إلى زاوية متطرفة، وبدون دراية ولا قصد، نفر الحليب، ثم أغلقت ثوبها وركضت، دون أن تسأل عن معنى الأغنية، وكانت الطائرة تنتظر. بعد سفر ناتاشا الصاعق، وذكريات الحليب التي باتت تعصف بي، وجدت نفسي علي مفترق طرق، ناتاشا اندفعت لدراسة اللغات الشرقية، وأنا اندفعت لتجاهل الشرق وطبائع الناس فيه، وانصرفت لدراسة الشعر الروسي ونظريات النقد السائدة، وحين وقعت في الحيرة التامة.

* كان من الضروري أن تصلني رسالة من أمي، أعني زوجة أبي لتوضح لي الأمور. ويا ابني يا عواد...

الناس في حلب ما زالوا ينظرون إلى إنتاج معمل اللبن بحذر وخوف، فهم لم يتعودوا أن يتم صنع اللبن والحليب والجبن والسمن في المعامل، حتى والدك الذي يشرف على المعمل لا يرضى أن يأكل من إنتاجه، يقول رغم النظافة وطرق الانتاج المعقمة والمنظمة، إلا أن اللبن الذي يصنعه الناس والبدو في البيوت له طعم يختلف عن طعم إنتاج المعمل، وهذا الطعم الخاص يقول والدك لا أعرف من أين يأتي وليتني أعرف اسمه ومصادره لأشتريه وأضيفه، المهم أن أخبار صديقك عدنان ما زالت غير مفهومة، فهو بعد أن ذهب لزيارة قبر ابنة عمه لم يعد، إهله يقولون بأنه من شدة الحزن عاد إلى موسكو دون أن يخبر أحدا لأنه غير قادر على احتمال الانفصال وغياب ابنة عمه، وناس آخرون يقولون أن الحكومة اعتقلته لأنه ضد الانفصال ومن أنصار الوحدة.

ومن يومها لم يعد أحداً يسمع عنه خبرا، والحرب بين بيت القزاز والعشيرة ما زالت قائمة، بيت القزاز استطاعوا الدخول إلى السجن وقتل (نعسان الزكور) وهو في القاووش، وبعدها قامت قيامة العشيرة، ولا يمر يوم إلا ونسمع عن قتل واحد من الطرفين.

بعد قتل (نعسان الزكور) وانتشار الخبر لا أدري ما الذي أصاب أختيك (عبلة وعاتكة)، أختك السمينة عبلة صارت تضعف وتهزل بسرعة، وأختك عاتكة التي تشبه العود بدأت تسمن، وامتنعتا عن الكلام، لذلك صار سهلا علينا الانتقال إلى حي المحافظة مرة ثانية. ووالدك لا يفهم كيف لا تعود الوحدة رغم القضاء على حكومة الانفصال، قلت لأبيك أن يستضيف في بيتنا احد أولاد العشيرة المتهمين بقتل أحد أولاد بيت القزاز فربما ساعد ذلك على تخليص (عبلة وعاتكة) من الحالة التي تعيشانها، لكنه رفض بعد أن فهم قصدي وغضب وهدد بقتل البنتين.. والسلام ختام... أمك نائلة.

قالت إحدى المدّرسات في قسم السياسة الدولية في الكلية.. نحن دولة عظمى وتقصد بذلك الاتحاد السوفياتي... ولنا مسؤوليات كبيرة تجاه العالم والكون لذلك الأمور الصغير ة

والكبيرة لا تمر ببساطة، كل شيء يخضع للدراسة والتنظيم ... وهذا الأمر من ناحية يؤدي إلى البيروقراطية، ومن ناحية ثانية يؤدي إلى استقرار المثل والأنظمة وسلطة المؤسسات.... ثم تابعت الكتابة على الورقة البيضاء أمامي...

. لذلك تموت أبنة عم عدنان ... ويذهب عدنان إلى قبرها ولا يعود ويذهب الشباب النحيلون الطوال مثل نهر موسكو إلى الحرب ويذهب نهر موسكو إلى الضواحي ليستمع إلى بكاء الفلاحات، وتضطرب الحروف الثقيلة في فم ناتاشا .. وهي تردد اسم عدنان.

خلال كتابة السطور الغريبة كنت ألمح شفتي كاتيا ممطوطتين إلي... فيهما وحدة شديدة ودعوة، كنت ألمح ذلك رغم مقاطعة وجه عدنان للنص المكتوب، لقد جئت إلى موسكو بترشيح من الحزب، وجاء عدنان لأن حكومة الوحدة بقيادة جمال عبد الناصر قررت إرسال المتفوقين العشر في الشهادة الثانوية والجامعة إلى موسكو، وكان من نصيب عدنان أنه كان واحدا من هؤلاء المتفوقين.

جاء عدنان إلى موسكو وإحساس عارم يملأه بأن الوحدة أرسلته، لذلك جهر يحبها، في وقت كنت أنا مرسلاً من حزب له (ثلاثة عشرة ملاحظة على الوحدة) وقد ثبتها في تقاريره، وقد حفظت من جهتي الملاحظات الـ (13) لأقارع بها عدنان وإضرابه، عندما يتنطعون للدفاع عن الوحدة، ولذلك ماتت ابنة عم عدنان التي تضارع بجمالها جمال ناتاشا تولستوي، وناتاشا نهر موسكو واللغات الشرقية، ولذلك ذهب عدنان إلى موت ابنة عمه ولم يعد.

- قالت كاتيا بعد صمت طويل : أنوف الناس في موسكو وبخاصة الفتيات دقيقة وجذابة رغم الرطوبة العالية في عاصمة الإتحاد، والسبب معروف وهو أننا نقتصد حتى في استنشاق الأوكسجين حتى نتمكن من تقديم المعونات إلى دول العالم الثالث. انظر مثلا إلى أنوف الفرنسيين، ثم حاول أن تقبلني لتتأكد من ذلك، وهنالك ملاحظة أخرى ولها علاقة (بالانثربولوجيا) يقول المثل إذا حككت جلد الروسي فسيظهر تحته كائن تتري من أحفاد جنكيز خان، والتتر كما تعرف من اقرب العروق إلى العرق الأصفر، لذلك تشكل لدي ميل طبيعي إلى لونك الأصفر وبدأت الاهتمام بك

- ليتك تحكين جلدك لتخرجي من تحته رجلا تتريا لتحبيه بدلاً مني.. قلت ممازحاً

- أجابت أنا لا أمزح... ناتاشا أخبرتني بعلاقتها معك بعد غياب عدنان، وأنا أعدك إذا أحببنا بعضنا فأنني لن أعطي شفتيَّ لأحد سواك.

بيني وبين نفسي قررت أن أقبلها حتى تصمت قليلا وتتوقف عن التدفق العظيم مثل نهر موسكو.. فبعد أن قبلتها . وضعت رأسي على صدرها، وأدخلت أصابعها في شعري وبدأت

تسرّحه دون أن تتحدث عن شعر الأغنام.

ثم طلبت مني أن أوافق على الزواج منها، بعد أن أخبرتني أنها بسبب تساهلها في السماح لي بتقبيل فمها أصبحت حاملاً مني.. وأنني في طريقي لأكون أباً... فانتفضت .. ورفعت رأسي من حضنها وحذرتها من مغبة الآباء والمجتمع البطريركي الأبوي .. ثم أوضحت لها.. بأن الحمل والإنجاب والأسرة . كلها مؤسسات آيلة للزوال كما قال (انجلز) وهي من منجزات المجتمع الطبقي والعياذ بالله. وعلينا رميها بعيداً.. فما كان من كاتيا العزيزة . سوى أن هجمت عليّ وأمسكتني من شعري وجرتني وألقت بي خارج المنزل ثم أغلقت الباب في وجهي .. لذلك نهضت وركضت إلى غرفتي في السكن الجامعي .. وحملت .. كتاب أصل العائلة وألقيت به من النافذة . ورجعت إلى كاتيا لأعلمها بموافقتي على الزواج . ثم ذهبت إلى السفارة لطلب الأوراق الخاصة بمعاملة الزواج فأوفدت السفارة رجلا من العاملين في الملحقية الثقافية ليشرف على عقد القران باعتبار الزواج وثيق الاتصال بشؤون الثقافة الوطنية، وفي الطريق قام الرجل بدوره الوطني ونصحني بالإقلاع عن الزواج من أجنبيات فشكرت له موقفه، وأفهمته بأن مهمة السفارة هي تمتين الروابط مع البلد المضيف وليس تمزيقها،وأن زواجي له هدف واحد وهو متابعة الدراسة، وابعاد شبح الفصل من الجامعة عني، فاقتنع الرجل ثم قرأ على مسامع كاتيا نصا يحض علي الزواج ويعدد فضائله وضروراته، وكان معنا شاهدان من بلدنا، ثم تليت خطبة النكاح فوافقت كاتيا باللغة الروسية وأنا وافقت بالعربية، وكنت مندهشا من ملامح كاتيا وحالتها، كانت كأنما تؤدي طقسا غامضاً فيه شعور بالفزع والقدسية وكانت صامتة ومرتبكة وشاخصة العينين إلى رجل السفارة الذي أتقن ممارسة هذا الطقوس،وقابضة بقوة على كفي كأنما تخشى أن ينشق المكان عن هاوية،

- بعد انفرادنا معاً، قلت لكاتيا أنت ذكية، وجسدك أملس، وبعد ذلك قبلتها قبلة الزواج الأولى، وقالت لي هذه القبلة مميزة، لأنها تخصنا وهي قبلة منزّهة عن الأغراض، فقلت لها نعم أنها منزّهة عن الأغراض، ثم نهضنا وغسلنا وجهينا وأزلنا آثار القبلة المنزّهة عن الأغراض وقامت كاتيا بتحضير الفطور وكان دسما يصلح ليكون فطورا لعمال المناجم فيه قطعتان كبيرتان من الصاصيجو، وصحن كبير من السلطة الروسية الغارقة بالمايونيز الذي بذلت جهداً كبيرا في العام الثاني لاقامتي حتى تمكنت من التعامل معه، وأربع بيضات عيون، مستغربة وشرائح من اللحم المقدد، وزجاجة كونياك بثلاثة نجوم، وكان القصد من هذا الإفطار العالي الجودة والمتانة أن أتخلص من الحالة المنزّهة عن الأغراض بأسرع ما يمكن لأبدأ حياتي الزوجية ولأعطي الإذن لأصوات الصحون بالتحول من همسات إلى خبطات عالية التوتر على وجه الطاولة... مما يذكر الجيران في الطابق الأعلى بضربات ساعة (بج بن)، ثم ولدن لنا

ابنتنا (فالنتينا) بالروسي و (علياء) بالعربي... ولم أكن أخمن أن حرف (العين) سيطارد ابنتي أيضاً، ربما فعلتُ ذلك بسبب الحنين والأسى الشديد على فراق عدنان... وهذا الحرف دون سواه يذكرني بناتاشا المنكبة في وحدتها على دراسة اللغات الشرقية وهي تقوم بتدريبات صوتية يومية لتتمكن من لفظ حرف العين، وربما ستوصلها المحنة إلى حروف الصاد والحاء والقاف والضاد. أما حرف الخاء فلا توجد فيه مشكلة لأن أجمل الأشياء عندهم تبدأ به . وهو كثير الانتشار والتداول لدى الفريقين، والذي يجب عليه أن يدفع الثمن كاملاً يا ناتاشا، يا ملكة الحليب . أيتها المشرقة في الشرق، حتى ليكاد نهر موسكو أن يركضٍ إليك، حتى لتكاد اللغات الشرقية أن تعتذر من بياضك المذهب... ونهدك الطافح وأنت تبعقين في الوحدة الجارحة (عين... عين.. عين) والناس في بلادي (يصرخون في الليالي يا عين ويضيفون إليها يا ليل ثم ينهمر الغناء. الفرق بين بياض كاتيا وبياض ناتاشا جلي واضح، بياض ناتاشا بياض ذهبي وله بريق، بياض كاتيا خامد ويميل للفضّة، والفرق بين البياضين مثل الفرق بين الذهب والمعادن الكتيمة الأخرى، لذلك يتشدد الذهب ولا يمنح شفتيه إلا للحروف الصعبة (عين... عين... عدنان)

بعد إبرام معاهدة الصداقة بين بلدي وبلد زوجتي كاتيا... انتشرت ظاهرة زواج الشبان السوريين بفتيات روسيات تعميقا لبنود المعاهدة، وهذا الأمر أي إعلان معاهدة الصداقة قوّى من موقف كاتيا فبدأت تطالب بإقامة زواج مدني حتى تحافظ على شخصيتها الوطنية، ولم أكن أعارض في هذا الشأن حتى لا أنال من كبرياء كاتيا فأظهر بمظهر القادم من القرون الوسطى، فالمعاهدة تنص على احترام الطرفين لبعضهما والعمل على الدفاع المشترك وصيانة المصالح

- هل تعرفين .... قلت لكاتيا، لقد وجدت وأنا أدرس شعر بوشكين أن فيه وعيا طبقيا جنينيا، ولو أن بوشكين عاش في الولايات المتحدة الأمريكية في الفترة (المارثيه)) لا تهم بالإلحاد كما فعل الأمريكان مع آرثر ميلر، ولتزوج مارلين مونرو.. مثله. هل تعرفين مارلين مونرو.

- شاهدتها في أحد الأفلام.

-جون كنيدي شاهدها أيضاً في الحفل الرئاسي وعندما لامس بياضها أخذها من يدها ومضى بعد أن ظن أنها هي البيت الأبيض،

هل يشبه قصر الزواج الذي تريدين إقامة العرس فيه البيت الأبيض،

- قصر الزواج يشبه كنيسة معاصرة

- أرجو أن تتحدثي عن قصر الزواج لأدخل في الحالة،

- عندما يفتح الباب تصدح أصوات الموسيقى وندخل معا يدا

بيد، أنا بالثوب الأبيض،

- بالثوب الأبيض.. على طريقة القرون الوسطى،

- وماذا يمكن للعروس أن تلبس ليلة زفافها .. أفرولا عماليا أرزق،

- لا لم أقصد، لكن لابد من التفكير بطريقة مختلفة،

- هل تعرف.. بعض المتحمسين عندنا في الحزب طالبوا أن تتم حفلات الزفاف إما في المناجم، أو في المصانع حتى يأخذ الزفاف معنى جديدا.... ولاستبدال المؤسسات السابقة كالكنيسة والأناجيل بأشياء أخرى تلائم النظرية،

- يا للنظرية لقد تذكرت بوشكين... لو أنه يعيش الآن لذهب إلى نهر موسكو وألقى بنفسه فيه حتى يأخذه إلى الضواحي ليسمع غناء الفلاحات،

- تبدو حزينا

عندما أتذكر بوشكين أشعر بالحزن وأشعر أن مكان الطلقة في صدره.. مازال ينزف.

- أنني أتحدث عن الزفاف .. وقصر الزواج ولا أتحدث عن الكوارث والمآتم..

وأريدك أن تكون فرحا.

- فرحْ وأصفر، هل يمكن ذلك،

- يمكن،

- حدثيني عن قصر الزواج،

- وبعد أن نتقدم أنا وأنت على البساط الأحمر الذي يشبه البساط الذي يسير عليه القادة والملوك في المطارات وأمام القصور وعند الحمامات، بعد ذلك.. ولكن قبل ذلك يجب أن نكون قد حجزنا موعدا من إدارة قصر الزواج ودفعنا الرسوم المطلوبة ليرسلوا لنا سيارة الفولغا الطويلة التي تشبه ديناصورا أسود ويفضلها السياسيون في العمل والاستقبالات، رغم أن حنينهم للمرسيدس والفورد لا يضاهى،

عندما يُحَدَدُ الموعد وتدفع الرسوم ونعطيهم العنوان... وننتظر .. وأحيانا ننتظر أكثر من اللازم، بعد ذلك تأتي السيارة السوداء المزينة والمعدة لحفلات الزفاف وفيها سائق مندهش وفرح وينفذ كافة الأعمال التي تطلب منه... أحد السائقين في إحدى حفلات الزفاف لإحدى صديقاتي تأخر ثلاث ساعات عن موعده وعندما سألناه عن أسباب التأخر قال بأنه كان يوصل بعض العاهرات.. إلى أماكن العمل...

قالت العروس غاضبة تترك حفل الزفاف وتذهب إلى العاهرات، قال السائق: وهو يخرج سيجارة المارلبورو ويشعلها.. أليس العملان من نوع واحد. عند ذلك ضحكنا وركب العروسان السيارة.

- وبعد ذلك،

- نمشي على البساط الأحمر... وتمشي معنا الموسيقى والثوب الأبيض والبدلة السوداء،

- كأنما هو زواج قارتين،

- نعم قارتين ... ونظل نمشي وتمشي معنا الموسيقا... وعندما نتأخر في المشي بسبب تأملنا للجدران الخشبية المزخرفة ونحن نبحث عن المكان الذي تخرج منه الموسيقى فلا نجد المكان رغم أن الموسيقى تمشي معنا، بعد ذلك تنزعج الفتاة الجميلة المرافقة والتي ترتدي ثياب المراسم، وعادة تكون هذه الفتاة أجمل من أية عروس، وعندما تنزعج تقترب منا وتطلب أن نسرع في المشي فهناك طابور من الازواج والسائقين في الانتظار.

- لماذا يختارون فتاة المراسم شديدة الجمال،

- حتى يسمع العريس كلامها ويستعجل في المشي لأنه يكون في هذه اللحظة أكثر تجاوبا معها من العروس المنشغلة بثوبها وذيل ثوبها، ثم نتقدم إلى منصة تشبه قوس المحكمة، وإلى موثق عقود الزواج، فنتقدم بالمعلومات اللازمة بعد إبراز بطاقات الهوية، وبعد ذلك نتقدم إلى عضو مجلس السوفييت الأعلى وغالبا ما تكون امرأة ... وهي تشبه أي قسيس في أية كنيسة، ويتأكد لك ذلك إذا تفحصت مضمون الكلام الذي تقوله على مسامعنا وتضطر فيه أن تستعير من الوصايا العشر أربع وصايا، لنعمل بها، وفي مقدمتها أن يحب الرجل زوجته وأن تحترم المرأة زوجها، ولأننا ورثة النظام الاشتراكي ولا نؤمن بهذه الوصايا أصلا لأنها إقطاعية المنشأ، لذلك لا تحترم الزوجة زوجها ولا يحب الزوج زوجته وهذا شيء يعرفه عضو مجلس السوفييت الأعلى الذي يلقي بنصائحه على مسامعنا.

- لقد أدهشتني صراحة كاتيا، فكدت أن أجمع أطراف ثوبي في فمي وأهرب، لكنني تراجعت وطلبت من كاتيا أن تتابع شرح خطوات الزواج بعد أن توقفت عن الاسترسال والتذكر،

- وبعد ذلك نتبادل لبس الخواتم، في بناصر اليد اليمنى،

- الزواج عندنا في اليسار، قلت موضحا،

- هذا ضد الطبيعة الأشياء، فالإنسان بعد الزواج يصبح أميل للمحافظة و التفكير بالمصالح وحسابات الربح والخسارة وبذلك يكون أكثر يمينية، لذلك يصبح البنصر الأيمن أكثر دقة، وتعبيرا عن طبيعة الزواج وحقيقته،

- أننا نضعه في البنصر الأيسر لأنه أقرب إلى القلب،

- هذا ضد طبيعة الأشياء مرة ثانية، بعد الزواج يتوقف القلب تماما عن التفكير بالزوجة ويحل العقل محله، أما قبل الزواج فللقلب سلطة أكبر،

- هذا يعني أن التعارض بيننا قائم حتى في تحديد وظيفة

الأصابع،

- لذلك أحببت أن أتزوج من بلادكم،

- لم أفهم،

- حتى يظل الزواج أقرب إلى القلب وبذلك يصان،

- أنني أعدك بأنني سأحبك حتى أجعلك تنسين أشعار بوشكين، قلت لكاتيا،

- لكنني لن أستطيع نسيان نهر موسكو

- وأنا لن أنساه،

- بعد ذلك نذهب إلى كافتيريا ملحقة بقصر الزواج لنقيم فيها حفلا لنا وللأصدقاء مدته نصف ساعة،

- ولماذا نصف ساعة،

- من أجل الطابور . ثم نتناول الشمبانيا والشوكولا في الكافتيريا ونخرج لنحتفل في أحد المطاعم،

- متى ستؤلفين كتابا عن (الزواج) يتضمن (نصائح وإرشادات) للمبتدئين،

- مشاكل الطباعة والنشر عندنا في غاية التعقيد، ثم ان كل واحد في بلادنا يعرف هذه الأمور، أم أنك تحاول أن تسخر،

- أبداً لكن لدي اقتراح، ما رأيك أن نقفز إلى النتائج فورا،

- لم أفهم،

- يعني بعد هذا الشرح الجميل لمفردات وتفاصيل الزواج المدني أقترح أن نعتبر أنه قد تحقق بالطريقة نفسها التي صورت فيها الحفل، ثم ننطلق مباشرة إلى المطعم لنكمل الاحتفال،

- هل كان وصفي لحفل الزواج كافيا،

- الوصف كاف وجميل،

- فلنذهب إلى المطعم، هكذا ردت كاتيا ضاحكة.

- فذهبنا إلى المطعم ... وفي الطريق لم تبارح ذاكرتي ملامح السائق...

وعضو مجلس السوفييت الأعلى.. وطرافة كل منهما، وبعد أن تبادلنا وجبة طعام شهية في مطعم (الكازاخ) فيها أطعمة شرقية وكافيار، وورق عنب بالرز واللحم شعرت بأنني أرغمت كاتيا على فعل شيء لا ترغبه عندما طلبت منها الاكتفاء بوصف الزواج المدني وعدم القيام به، وأنه من شأن ذلك أن يضر بمعاهدة الصداقة بين بلادي وبلادها، ولكنها وبعد أن أوضحت لها مخاوفي.. قالت.. أنا مكتفية بالتوضيح ودعنا نقفز مباشرة إلى النتائج ونذهب إلى أقرب سرير.

كان السرير ضيقا وضعيفا، وكانت كاتيا منزعجة وقد أخبرتني عدة مرات بضرورة تغييره لأنه لا يمكن للزواج أن يصير

زواجا ولا للمرأة أن تحب زوجها إذا كان السرير ضيقاً... وعندما فشلنا في النوم عليه متجاورين.. نهضت كاتيا منزعجة وذهبت إلى المطبخ.. ونهضت أنا منزعجاً وذهبت إلى الطاولة المجاورة ... كنت أعتقد أن الأشياء الضيقة . تؤجج الحب والمشاعر، قبل أن أتزوج كاتيا... لم أكن أحس بضيق السرير.. أما الآن.. فأنا خلف الطاولة .. لذلك قعدت.

وبدأت بكتابة رسالة إلى زوجة أبي نائلة .. أعلمها فيها أنني تزوجت، ثم وصفت لها كاتيا وطولها ووجهها وسلامة نطقها للكلام باللغة الروسية وعينيها الزرقاوين اللتين تميلان إلى الرماد مثل عيون القطط ومياه نهر موسكو، وأخبرتها عن السعادة الغامرة التي أحسها بعد سفر ناتاشا إلى طشقند، ,أنتم تعرفون الزواج ومصاريفه، لذلك أرجو منكم إرسال ما ترونه مناسبا من العملة الصعبة حتى لا تتوقف كاتيا عن احترامي ومحبتي... ولأتمكن من شراء سرير عريض ومتين.. لأن كاتيا لا تفضل الوقوف لأنه يشعرها بالتكافؤ، وهي في الحب مستعدة لتقديم التنازلات، ثم ذهبت للبحث عن سرير عريض. وفي إحدى صالات عرض المفروشات وجدت سريرا فارغا، فذهبت لشرائه، فقالت لي الموظفة بأنه للعرض فقط ولا توجد أسرة جاهزة، ,إذا كنت مضطرا فعلي أن أسجل دوراً عند الإدارة، وسيحدد لي موعد قادم لاستلام السرير العريض،

أما إذا كنت مستعجلاً بشكل كبير فلأذهب خارج الصالة وهناك سأجد رجلاً عريضاً أستطيع أن أطلب منه ما أريد وسيلبي لي كل حاجاتي.. فخرجت ووجدت الرجل العريض وأخبرته عن رغبتي، فأخذني من يدي إلى الضواحي.. وفتح مستودعا رأيت فيه سريرا ولم يكن عريضا، ولكنه يبدو عريضاً بسبب فراغه.. ثم أن الرجل العريض أقنعني بأنه عريض جدا... وأن المكتب السياسي للحزب لا يسمح بسرير أعرض من هذا السرير، ثم تابع إقناعي بأن السرير عريض... فاقتنعت .. وأحضر لي شاحنة صغيرة فوضع السرير عليها وأخذ مني ثمنا أعلى بحوالي ثلاث مرات من ثمنه المحدد بالصالة، وبالواقع كان الثمن عريضاً أما السرير فلم يكن عريضا، عندما أدخلته إلى الغرفة، وركبته بالتعاون مع سائق الشاحنة، وحين شاهدته كاتيا صرخت أنت لا تصلح لشيء، وهكذا بقيت هذه الكلمة ترن في أذني حتى بعد تفكك الاتحاد السوفييتي.

- ولكن الرجل العريض أقنعني.. صرخت في وجهها غاضباً، عند ذلك حملت كاتيا.

الأغطية والفراش والوسائد فظهر السرير السابق عاريا سوى من الحديد.. فقامت بقياس عرض كل منهما فوجدته واحدا، فقلت لها هذا دليل على السياسة المبدئية والثابتة للمكتب السياسي للحزب فصاحت في وجهي... إذا كانوا هناك يعتبرون أنفسهم المكتب السياسي فأنا هنا اللجنة المركزية، ثم قامت بجمع السريرين إلى بعضهما فصارا معا

سريرا عريضا، متهدما من الوسط وغير متساوي الحواف... وهذا يزعج ظهر المرأة كثيرا، ثم انطلقنا معا.... لشراء فرشة للسرير الجديد، وبعد إحضارها إلى المنزل قامت كاتيا بإخاطة حافتي الفرشتين ببعضهما فصارت لدينا فرشة عريضة وتحتها سريران ضيقان، وهكذا ربحنا سريرا عريضا، يسعنا معاً أنا واللجنة المركزية.

خلال أزمة السرير، جاءت رسالة من زوجة أبي نائلة، فيها كلام طويل طويل... تخبرنا فيه عن فرحها بهذا الزواج، وبصورة كاتيا التي أرسلتها في الرسالة وفرح أبي وفرح أمي... وفرح أختيَّ (عبلة وعاتكة) وإن الناس في العشيرة فرحوا لأن واحدا من أبنائهم سيتزوج امرأة أجنبية شقراء.

أما عن صديقك عدنان فلم يظهر له أثر بعد قيام الانفصال. الله يصبر قلب أمه.

بعد أن وصلت رسالتك السابقة أحضرنا أغناماً إلى البيت وأحوال عاتكة وعبلة بدأت تتحسن.

أمك قالت اللي ما بيتجوز من ملته بيموت بعلته، لكنها قالت الله يرجع ولدي عواد بالسلامة وكل شيء يهون،

اشترينا بيتاً بالمحافظة وفرشناه، لكن بعدما وصلنا خبر زواجك وقرب عودتك قررنا أن نترك بيت المحافظة لك ولزوجتك لتعيشان فيه بعيداً عن الأغنام- كثيرا من الناس يقولون إذا لم تتوحد الراديويات خلن تتوحد البلاد، وعدنان لا خبر يصل من طرفه، يا حرقة قلب الحارة عليه، وبأيام الانفصال كانت إذاعة حلب تقول لعبد الناصر (انجدونا بالطائرات) وصار الناس يرفعوا رؤوسهم إلى السماء ويقولون (لابد من وصول الطائرات) لكن قوات الانفصال وصلت وامتلأت الحارات بالدخان

بعد دخول قوات الانفصال ... انحبس المطر بالسماء، ومات الشيخ سراج في باحة الجامع الكبير، وعدنان لا حس ولا خبر يا حرقة قلب حلب عليه، أمك توصيك إذا ولد لك ولد أو بنت ببلاد الغربة لا تسميهم بالروسي.. سميهم بالعربي حتى لا ينسانا المطر،

- الحكومة جاءت إلى والدك وطلبت منه أن يترشح للانتخابات. فقال لهم إذا لم تعد الوحدة فلا لزوم للانتخابات، ولا للترشيح . ثم خانته قوه فبكى قدام الحكومة والناس، وقال: لا تؤاخذوني قلبي محروق على الوحدة اللي ضيعناها، وعدنان لا حس ولا خبر، يا حسرة قلب الوحدة عليه.

عبلة وعاتكة صارتا مهتمتين بالسياسة، عاتكة من كثرة الاستماع للراديو صارت تكتب شعراً ومواليات ضد الانفصال وصارت أختك عبلة السمينة تحملها على كتفيها (وعاتكة) تصرخ ضد الاستعمار وتهتف بحياة جمال عبد الناصر وروسيا لأنهم ضد الانفصال، وأمك تصرخ عليهم... لا تفضحونا، أخاف أن تأتي المخابرات ويقبضوا عليكن فتقول لها عبلة ليتهم يأتون..

فننحن مستعدتان لكل شيء وعدنان لا حس ولا خبر، يا حرقة قلبي عليه.

بعدما قرأت رسالة زوجة أبي، أحسست بأنها قطعة من عيون الأدب العالمي، بسبب تميز أسلوبها بالأصالة والعفوية وتوفر الأغنام.

وهذه الصفات لا تتوفر في أسلوب الرسالة التي أحضّرها لنيل شهادة الدكتوراه، فأنا أتميز بالتكثيف والتعقيد والإحاطة، وعندما أنجزت رسالتي التي تحدثت عن ظهور النقد الثوري، ونموذجه الصارخ (بيلنسكي) ودافعت عن الرسالة أمام حشد كبير. وحين أتممت العرض والدفاع عن الرسالة : حصلت على تقدير جيد يرافقه امتعاض شديد من الأساتذة والطلاب المحتشدون، وكان في ذهني أن مرتبة الشرف الأولى لا تسعني. فلقد تملكني في الأيام الأخيرة من تقديم رسالتي شعور بالاعتزاز والقوة، وصرت أرى الأحلام باللغة الروسية خلال النوم، وأتحدث في الأحلام مع أبي وأمي بها من شدة تركيزي على مادة البحث. ورغم الذي حصل أحسست بأهمية أن أحمل لقب دكتور.. وأصير قادرا على إحصاء أخطاء الروس وهم يتحدثون لغتهم ويصوغون حياتهم.

فالناقد الذي أصبحته صارت الأشياء والبشر والمنجزات واللغات والآداب، والأحزان، كلها موضوعات للنقد أمامه، دون أن يحوز على فضيلة أو شرف أن يكون هو موضوعاً لأي نقد،

وكانت كاتيا تحس بتناقض الحالة ولا معقوليتها، غير أن السرير العريض كان يتدخل لتسوية المشكلة، خاصة وأن كاتيا كانت مشغولة ببطنها وبالشيء الذي يتحرك فيه،

- بعد دفاعي عن رسالة الدكتوراه ونيلي للشهادة، دافعت كاتيا عن أنوثتها وأنجبت أبنة، مزدوجة (الاسم) ومختلفة لون العينين، ففرحنا بالإنجازين معا.

وبدأ بعد ذلك العد التنازلي لأيام موسكو، موسكو العظيمة في المدن الرائعة بالأبناء والأخطاء النبيلة بالهواء الأول الذي ملأ رئتي ابنتينا (فالنتينا) بالروسي، و(علياء) بالعربي ... وعدنان يا عيني لا حس ولا خبر، يا حرقة قلب الأصدقاء عليه.... كان أمرا غريبا وصاعقا أنني بحثت باستماتة عن اسم لابنتي يبدأ بحرف العين وفاء لصديقي عدنان،

لكأنني عندما اخترت الاسم تلامع في أذني صوت ناتاشا وقد برقت الدموع على خديها والفرحة على وجهها وهي تصيح لقد نجحت، نجحت وصرت ألفظ اسم عدنان كما يريد عدنان وكما يلفظ الناس اسمه في بلاده... فأين هو عدنان، لقد ذبلت شفتاي من الحزن عليه ومن انتظاره ومن قوّة اللغات الشرقية وغرابة الحروف فيها، وأصبح صوتي مجرحاً وعميقاً من شدة الصراخ في الغرف المغلقة. بعد أن تذكرت صوت ناتاشا وتخيلت لون الصراخ الذي يعذبها، هرعت إلى نهر موسكو لأتذكر شيئاً

من الحليب، ولأنظر إلى السماء اللامعة، ودرب التبانة الذي تركته ناتاشا وذهبت، وقد أحسست بالأسى والخيانة. كنت أرغب أن يكون اسم ابنتي ناتاشا، لكنني لم أكن أستطيع حتى لا أحرج مشاعر كاتيا، ولا أخرج على وصيّة أمي... فينقطع المطر في بلادنا...

ولكنه مقطوع يا أمي والأنهار جافة، والفرح والشجر قليل، الماء مقطوع من زمان... من أيام ظهور الملل والنحل والنصوص واللصوص، والحجاج والحلاج،

فلماذا عندما تأتيني ابنة لا أستطيع أن أسميها ناتاشا، يا تولستوي العظيم، الذي تتدفق لحيته البيضاء مثل نهر من الحليب، كأنما شاهد ناتاشا اللغات الشرقية، والنهد العارم الشريد، والبياض الذي يذهل الناس واللغات فيهربون إلى الصفرة الغامضة مثلي، أو إلى الموت مثل عدنان، الصديق الذي انقطعت أخباره يا حسرة قلب الخليقة عليه,

كثير من الساعات أنفقتها وأنا أتأمل النهر لأستعيد السنوات السبع التي عشتها على ضفافه،وكنت أحس بالحشرجة والانقباض عندما تتضاءل المسافة وتذوب الأيام ويقترب موعد السفر، ثم بدأت الأشياء والصور بالتداخل والتشكل والوضوح، لم يكن النهر، ولم تكن ناتاشا ولا الحليب ولا تولستوي ...، كانت موسكو وفراقها هو الذي يجرح الروح ويوصل للحشرجة.موسكو التي كثيراً ما عددنا أخطاءها ثم وجدنا أنها أخطاؤنا... أما المدينةُ فمستعصية على الخطأ ، مثلما استعصت ناتاشا على الكراهية وتدفقت بالأنوثة والحليب.

- لذلك وفي لحظة المغارة .. التفت عواد إلى موسكو العظيمة كأنما لم يشاهد سواها أبداً... ثم. عاد لاهثاً إلى الطائرة.

❐❐❐

إعلان المقاطعة والحصار

بعد أن تلامحت بوادر الحمل. على بطن علياء. اضطربت الأسرة من أصولها إلى فروعها وبخاصة بعد أن تسرب الخبر إلى زوجة الأب الثانية - نائلة- التي بدأت تعتبر نفسها جدّة أولى بعد أن ولدت للدكتور عواد أبنه فضائية أسمها علياء ولها عينان متباينتان، واحدة زرقاء والأخرى عسلية، وقد كبرت البنت وأصبحت في مقام النساء وانتفخت بطنها بطريقة لا تدعو للاعتزاز ولا الرحمة.

لذلك وجهت الجدّة نائلة دعوات مستعجلة لأركان الأسرة لحضور الاجتماع.

ثم قعدت وأقعدت حولها أركان أسرتها بأعمارهم وألوانهم ونظراتهم المتباينة، وقعد حولها الأب حميد السمني، والعمتين الضالتين . عبلة وعاتكة، وقد أحستا بنذر الخطر وخمنتا أسبابه، بعد أن انتبهتا إلى بطن أبنة أخيهما الشقراء فالنتينا . وقد حاولت العمتان كخطوة مؤازرة، أن تطلبا من فالنتينا أن تريهما بطنها، وقد استجابت لهما وكشفت عن بطنها، فشعرتا بالبهجة وتحركت أصابعهما إلى البطن الصغيرة الهائلة ولامستاها بشغف، وتذكرتا معاً ليالي الاغتصاب السالفة التي حاولتاها مع فارس العشيرة (نعسان الزكور) الذي قيل أن يموت في السجن على أن يظل حياً بين أيدي الأختين وأشواقهما القاتلة، وحين لا مستا وتذكرتا، غرغرت في عيونهن دموع متماثلة ثم زفرتا معاً زفرتين موحدتين، وهما تتأملان الهواء بحزن، وقد تجرأت عبلة فانتزعت كفها الجاثمة على بطن فالنتينا وقربتها من بطنها لتلامسها وتفركها بقوة عسى أن تحرك فيها عوامل الفقدان والجدب القديم. ثم التفتت إلى أختها عاتكة وقالت بعد أن تأملت الاجتماع بعينيين زائغتين.

- اقلبي الجرّة على مؤخرتها، تصبح البنت مثل عمتها، ثم انخرطتا معاً في البكاء العميم،ولم تتوقفا إلا عندما صرخت فيهما الجدّة صوتاً، أفلح في ردهما إلى الحضرة... وقبة البطن الغائمة ثم نظرت الجدّة نائلة إلى الأعالي.. ولمحت السماء وقد تحركت فيها الغيوم والعوامل وتذكرت بطنها الميت وخطوط الوحشة والرماد عليه. وصاحت: يا رب أعدني إلى الزمان الذي افلت مني... لأرتكب مالا طاقة لامرأة عليه.

ثم قعدت وسألت المتحلقين حول كلامها : من الذي جعلني جدّة؟

- العمر الطويل والتجاعيد... قالت عبلة:

- احترام الناس والعشيرة لك، قالت عاتكة وراديوا الترانزستور في حضنها،

- قالت الجدّة نائلة:

صرت جدة من اليوم الذي ولدت لابني عواد أبنته فالنتينا.

- هذا صحيح، لكن ما هي مناسبة هذا الكلام وما دخل فالنتينا قال الجد (حميد السمني) مغتاظاً،

- فالنتينا حامل.. قالت الجدة نائلة موضحة

- فالنتينا حامل؟ زوج ابنته هذا المغضوب عواد وما أخبّرنا.. قال الجد مستنكرا

- فالنتينا حامل من غير زواج، قالت الجدة نائلة موضحة ومرتبكة.

- سأل الجد بعصبية من غير زواج ... كيف؟ وهل صارت مريم العذراء حتى تحمل من غير زواج.

قالت عاتكة:

- أبداً... تعرفت إلى شاب.. وحصل معها الذي حصل.

- قالت عبلة: يمكن الملعون هددها: ثم اغتصبها.

- هددها؟.... كيف؟... زأر الجد: فخافت الأغنام في الباحة الخلفية للدار.

- أجابت عاتكة ربما قال لها ستتصبحين مثل عمتيكِ عبلة وعاتكة إن لم توافقي وتستلمي فانكسرت نفس المسكينة واستسلمت للتهديد . ثم قر بت الراديو من أذنها لتتأكد ان كانت عادت إليها الحرارة

- سأل الجد بعد صمت طويل: .... وأبوها عواد أفندي الذي غير اسمه وذمته ماذا فعل؟

- طلب من ابنته أن توافق على الزواج من الشاب.. حتى لا تصير فضيحة ويولد لها أبن هو في عرف الناس أبن حرام.

- قالت عاتكة بعد تفكير عميق: وما ذنب الطفل الصغير حتى يكون ابن حرام، أولاد الحرام هم الأب والأم.. فهما من ارتكب الأخطاء.

عند هذا الرد، نهض الجد مستندا على أكتاف المريدين حوله، ودوت في الباحة المربّعة صرخة الله أكبر... ثم دخل الجد إلى الغرفة القبلية... وانفرد فيها بروحه وعمره الطويل... ثم خرج ببيانه إلى الأمة والعشيرة والناس، وقد تضمن البيان (رغم تدخل الجدة الجديدة نائلة، لتخفيف اللهجة والشروط) إعلان الجهاد المقدس، وفرض الحصار على بيت الابن بالاعتماد على مجموعة يتم اختيارها من صفوة شباب العشرية المتشددين من أجل إنجاح الحصار،

ثم جاء القرار الثاني، ويتضمن قطع المعونات وفرض الحصار

الاقتصادي على أسرة الابن، مما أدخل الذعر إلى قلب الدكتور عواد، وزوجته كاتيا، وابنتهما، وقد جاء في حيثيات القرار الثاني، إيقاف تدفق المواد التموينية الدائمة، من حليب ولبن وجبن وسمن ولحوم، والتوقف عن دفع المبالغ النقدية شهريا والتي كانت الجدة نائلة تقوم بتقديمها سرا إلى الدكتور الابن... لأنه دكتور في النقد الأدبي والعلوم الإنسانية يا حسرة وليست له عيادة ولا مشفى . مثل بقية الدكاترة الطبيعيين. وهو يفهم في رفع الضغط ولا يفهم في قياسه . ثم ضرب الحصار بسرعة قياسية لا تخالطها الرحمة والاعتدال. لذا فان الذاهب إلى حي الشهباء قرب فيلا (التضامن) وما حولها، يرى فيما يرى النائم واليقظان رجالا ملثمين يرتدون (جلابيات واسعة) وعلى رؤوسهم لفاحات ملونة، تغطي معظم وجوههم، وتترك المجال واسعاً لعيونهم لتركيز الرؤيا والانتباه، مما يعكس حالة التأهب والمزاورة والتهديد.

أما على الجبهة الثانية ونتيجة لانصراف الرعاة والحلابين لحراسة الفيلا وحركة الجنين.

فقد امتلأت ضروع الأغنام بالحليب ثم تجبن الحليب داخل الضروع وما من يد تمتد للغوث والنجدات،

- ويا أمي.. صاح الدكتور عواد... أنه يتدفق ويقصد بذلك نهر موسكو... إذ كيف وبعد عشرين من السنوات خطرت بباله الذكرى... وهو يلمح ساقي ابنته كضفتين ممدودتين... وقد اعتلتهما بطنها الصغيرة المكورة مثل بحيرة بعيدة لا ترى...

أنه الثلج وأيامه... ويا ليتني حملت النهر على كتفي ومضيت... ويا ليتني لم أكن عبدا لحرف العين، هذا الحرف الذي ابتليت به فانقطعت عن الرؤيا... حرف مكور مثل بطن صغيرة وابنة لامعة ورأس عنيد....

في البرهة الأخيرة لوداع النهر تمنيت أن أحمله معي... لم أكن في ذلك قد وطدت علاقتي بالسيدة الفودكا.... التي يؤكد الكثيرون بأنها الشيء الوحيد الذي يمارس سلطته منذ القديم . والسيدة الفودكا عندهم أقوى من الحزب ومن المكتب السياسي ومن نهر موسكو. وهي تتدفق دون أن يخالطها الرصاص والجنود الغائبون. ولكنني... ولكنهم يريدوننا أن نموت جوعا، وها هم يحاصروننا.....

البنت ممنوعة من المغادرة حتى الزواج أو الإجهاض، والحصار الاقتصادي مضروب فلا مواد غذائية ولا لحوم ولا جبن ولا لبن ولا حليب، وقد انعكس ذلك بشكل فاضح على محتويات البراد فصار مثل موسكو صغيرة دون أغذية ودون نهر ودون ناتاشا... وماذا يمكننا أن نفعل .. صرخت بزوجتي كاتيا وابنتي علياء..

- صاحت كاتيا... غدا سأذهب للقنصلية الروسية عند طلعة المحافظة لأطلب منهم التدخل لكسر الحصار، بعد ذلك

سأذهب أنا وابنتي لموسكو.

0 لن أذهب إلى موسكو صاحت علياء... سأظل هنا وتابعت الضغط بكفيها على الجنين كأنما لتحميه،

- طيب وافقي على الزواج من عامر، فهو يحبك ويريد الزواج منك

- لكنني لا أريد الزواج،

- ألا تحبين عامر،

- أحبه، ثم بكت للمرة الثانية في حياتها، المرة الأول كانت عند ولادتها، وسالت الدموع إلى صدرها ووصلت إلى بطنها المكور أمامها وأمامنا وأمام الله والعشيرة

- تحبينه ولا تتزوجين منه صاحت الأم، ولا توافقين على الذهاب معي إلى موسكو، صاحت الأم مرة ثانية... لماذا.. صاحت الأم مرة ثالثة... ثم خبطت بقبضتها كما تفعل بالصحون على الطاولة، لكنها لم تجد طاولة... ففعلت ذلك على ركبتها . ثم نهضت بقوة بعد أن منحتها قبضتها المشدودة إحساساً بذلك، يجب أن توافقي على الزواج من (عامر) تابعت الأم، حرف العين يتدخل أيضاً ليزداد سوء الفهم، يتدخل هذه المرة في اسم وشخص العاشق الولهان الذي اقتحم البنت واقتحم حياتنا ثم أقحمنا في الحصار.

- لا أريده صرخت الإبنه : أنتم لا تفهمون...

- ما هي الأسباب سألنا معاً

- أنتم... والجدار، ويد الرجل الممدودة بحثاً عن أشياء لا أعرفها، أحسست بالدم، وبأنني أن لم افعل سأموت،

- ما دمت تعتقدين أن حياتك مع عامر ستكون صعبة فأنا أقترح عليك الإجهاض

- الإجهاض لا... صرخت كاتيا.... هذا الابن ابننا ويجب أن يعيش، وهكذا وجد الأب والأم والبنت والروح القدس التي تتحرك في بطنها، أنفسهم جميعاً في الطريق المسدود، فالإنذار الذي وجهه أركان الأسرة والعشيرة واضح وعنيف ويتضمن المطالبة بإخلاء المنزل وإجلاء المحتلين، عندما دخلت فالنتينا إلى غرفتها... وباعدت ما بين ساقيها.. تذكرت الشرشف الأبيض،

ولم تتمكن رغم الجهد الواضح من تذكر سوى نصف وجه عامر.... ربما لآن النافذة المطلة على الحديقة لم تكن مفتوحة عن آخرها... وكان الضوء المنبعث يعطي للأشياء ظلالا جميلة توهن المخيلة، فلا تستطيع على تذكرها كاملة.

- الذين نحبهم نتذكر نصفهم ... قالت علياء في نفسها ثم نهضت... وقعدت على الكرسي .. وفتحت ساقيها مرة ثانية.. كان قربها القانون الروماني وفي رأسها جدار كبير دون سماوات

وشراشف.

... ثم ضحكت .. لقد اضطرت في الأيام الأخيرة أن ترسل لعامر الصندويشات بعد أن ضرب الحصار هو الآخر عليّ وعلى البيت، قال بأنه سيفرض علي شروطه بهذا الحصار وسيتزوجني غصبا عني... عقله صغير... لقد تزوجني من زمان وقد أظهر في حصاره هذا جلداً وصبراً فلم يبارح الدرج المؤدي إلى بيتنا رغم البرودة التي تسللت إلى عموده الفقري ... لكنه اضطر إلى المغادرة بعد أن أحسست به الميلشيات التي تضرب حصارها على بيتنا.. واعتدى عليه أحدهم...وهدده آخرون

- أمي قالت لي تزوجيه، أحس بأنه أحسن من والدك، وستكونين أسعد مني، لكنني غضبت.. كنت أشعر أن والدي هو والدي وأنا أحبه رغم كونه لا يحسن اختيار الزوجات ولا الأصدقاء، عندما حدثني والديّ عن حياته في موسكو، سألته مستغربة لماذا لم يطلق عليّ اسم ناتاشا... لكنني فهمت لماذا لم يفعل، وقد كلفني ذلك أن أقرأ كل ما وصلني من كتب تولتسوي . ثم خطر ببالي أن أطلق على الجنين إسم عدنان.. على اسم صديق والدي، فما دامت ناتاشا قد أحبت عدنان، فما الذي يمنع من أن أحبه أنا أيضاً. وقد راودتني هذه المشاعر دون التفكير في المستقبل. أو الزمان الذي يمكن أن يكبر فيه صغيري ويحب فتاة من بلاد بعيدة لاتقدر على نطق الاسم. ثم تبكي وهي تحاول جاهدة أن تلفظ الاسم العجيب كما فعلت ناتاشا.

- والدي حاول التدخل بين الميليشيات وبين عامر خلال الاشتباك، وقد صرخ أحدهم بوالدي قائلاً : والله لو لم تكن ابن الحاج، لمسحنا الأرض بهذا البندوق، ويقصدون عامر، وقد وصلتني بعد المعركة رسالة من عامر

وقد بدأها بهذه المقدمة :(ان الابن الذي يولد وينمو بعيدا عن والده، يموت) ثم قال عني بأنني فتاة رديئة رغم البريق الذهبي لساقيها، وأن الابن الذي ستلده أم مثلي سيكون عظيما، ثم تحدث عن البرد وبأنه يخرج إلى السطح ساعات طويلة ليتذكر أيامنا الأولى والسماء والشراشف والبرد الذي لا يحتمل . ورغم ذلك استطاعت بطنك أن تفعل هذا الشيء العظيم وتنتفخ ولابد من الهرب معه. وإلا فأن الحرب قادمة لا محالة ولن تنفعك العشيرة ولا البداوة ولا الرعي، وقد قررت أن أحرق منزلكم العامر حتى تتصاعد ألسنة اللهب وألسنتكم ولا يغيثكم أحد، وعندما ستصلني أصوات الاستغاثة سأركض إليك بعد أن أصرخ صرخة أزلزل فيها الأرض ثم أهجم على النيران لأنقذك ولنحيا بعد ذلك حياة جديدة دون بيوت وجدران وحضارات.

والدي موافق على زواجي منك وقال بأنه سيكون سعيدا بزوجة ابن مثلك، أمي قالت المرأة التي تسلّم ماء وجهها لرجل

قبل الزواج، مكانها خلف الجدار، وعندما أوضحت لها أنها هي خلف الجدار أيضاً، صرخت ِفي وجهي، وانصرفت إلى غرفتها وذكرياتها، والدي يقول ليس المشكلة في أمي، المشكلة في طبقتها، لقد أصيبت هذه الطبقة بالجنون، والعزل هو مصيرها المحتوم، ويقصد بالعزل، العيش خلف الجدار.

لقد بت أعتقد أن الجميع يعيش خلف الجدار، عدا الجدار ذاته، والآن كأنما لا يكفينا ما لدينا... حتى يأتينا جدار العشيرة، لذلك قررت الحرب يا أم العينين الوحيدتين،

- أم العينين الوحيدتين:؟ لم أفهم قصد عامر من هذا الوصف، لكن والدي وبعد أن قرأ الرسالة قرر كتابة رسالة إلى جدي يستعطفه فيها ليوافق على كسر طوق الحصار الغذائي ويرسل لنا المؤن لأن سمعته ومصداقيته باتت مهددة أمام ضغط الحاجات والهيئات العلمية ونظرات الأصدقاء. فبالإضافة إلى ضغط الحاجات صار الولد في بطني يرفس ويضغط علي،، وقد توقفت طويلا عند عبارة واحدة في الرسالة اعتبرتها العبارة القاتلة، التي حسمت الحرب، هذه العبارة هي (ان الولد الذي يولد وينمو بعيدا عن والده يموت)، لم أكن معتقدة بصحة العبارة، لكنني أعتقدت بقوة المشاعر التي دفعت (عامر) لكتابتها وأن هذه المشاعر والأحزان والعزلة من شأنها أن تؤثر على الجنين وتعيق طبيعته وطفولته، لذلك أخبرت والدي بموافقتي على الزواج، ثم بدأت أحضر نفسي من أجل الليلة المجيدة.

ولأنك تبحث عن خاتمة بطولية... مملوءة بالضحايا والشعارات العظيمة ... ولأن العصر لم يعد يحتفي بشيء .. قوة التحليل والنظرات الصائبة صارت من الماضي، القوة التي تؤدي للوحدة البليغة، ذلك هو مصيرك،وها أنت وفي عزلتك وبكفين مثقوبتين، تبدأ الكتابة، بضمائر متعددة، مرة لك وأخرى للغائب الذي يتواري فيك. وبكفين مثقوبتين من شدة التذكر، تكاد تودي بروحك وطبيعتك، مطوحاً بالحالمين بمعتقداتهم وأحزانهم، ثم تعرض كفيك للمسامير مثل أب وحيد وابن وحيد، لذلك .. تصغي عميقاً إلى حركة الأشياء، فربما هبت من النافذة المفتوحة أنسام من طرف الحديقة لتحرك الثياب المعلقة لزوجتك الغائبة كاتيا، التي أخبرتك في الرسالة الأخيرة كم تحبك وتنتظر قدومك إلى موسكو لتعيدها إلى المرض، لأنها في غيابك ما عادت تحتمل الشفاء. فالبيروسترويكا، وغياب الدواء والأغذية، جعلاها تحن إليك وإلى لونك الأصفر ونظراتك الثاقبة،ولكنها لم تنتظر، لم تنتظر قدومك، لم تنتظر قدوم أحد... وماتت هناك،

أختك عاتكة، قالت، يرسلون اليهود إلى فلسطين والنساء الجميلات إلى رجالنا ويتركوننا قاعدات في البيوت مثل البعير، لذلك يموت جمال عبد الناصر، ويضيع أثر صديقك عدنان... ويبدأ صوت الراديو بالطنين. ولكنك تتذكر رغم وحدتك، ورغم تردد صديقك الأفغاني للزيارة والتذكير، وحديثه لك عن عصر النهضة

الجديد وبأنك إذا لم تسرع في إعطائه مبلغ الألف وخمسمئة ليرة سيضطر للتعاون مع السلطات لإرغامك على الدفع لذلك تتركه وتذهب إلى خزانة كاتيا وتخرج ثيابها العظيمة وتنثرها في الغرفة والممرات وباحة الحديقة وتعبر خلال الثياب لتتشمم رائحة صاحبتها، التي ذهبت دون أن تترك لك فرصة للوداع.

وعندما ذهبتَ إلى أهلها في موسكو وأخذوك إلى قبرها، طلبت منهم أن تقعد وحدك،وقعدت ثم أخبرتها بآخر الأخبار، وفجأة وبدون اعتذار تذكرت النهر فنهضت وهرعت إليه، ورغم تأخر حصولك على سيارة أجرة إلاّ أن حماستك للقاء النهر ظلت قوية متدفقة، وعندما وصلت وقعدت إلى ضفته، اقتلعت نفسك من زمانك الذي يهرب منك كما يهرب الماء من منابعه، ثم تذكرت الينابيع وأيام الطفولة، وتذكرت الأغنية التي لا تنسى، وإذا جفت الأنهار في مدينتك فأن الأنهار في الكتب كثيرة وما زالت تتدفق، وتذكرت الأغنية التي ربما تمنيت أن تغنيها لناتاشا وأنت نائم برأسك على صدرها . تذكرتها وبدأت الغناء،

أيها النهر لا تسر وانتظرني لأتبعك
أنا أخبرت والدي أنني ذاهب معك
فانتظرني لأتبعك

أنا أخبرت مركبي هو يا نهر من ورق
فتوقف ولا تسر لست أخشى من الغرق
فانتظرني لأتبعك،

وتحس أنك هذه المرة تغني أغنيتك لكاتيا، ويسيل النهر أمام ناظريك مثل شيء كثيف، شيء لا يعبأ بالأغنية، شيء كأنه الرصاص، ويذكرك الرصاص بالثقوب التي تملأ صدور الناس، صدر بوشكين وصديقك يوسف اليوسف وأبو فراس الحمداني والمتنبي والحلاج وصدر مركبك الورقي، فتنتزع نفسك من سطوة الماء وتمضي دون أن تقدر على انتزاع نفسك من ذكريات كاتيا الغالية التي تتدفق في رأسك مثل ماء عظيم بعد ذلك تبدأ الإحساس بالثقوب والدم وتفتح كفيك وصدرك، ولا ترى شيئاً من البطولة يدل عليك حتى ولا نظارة بعيدة تتيح لك أن تمد إليها يدك.

❑❑❑

آخر الأخبار

بعد موافقة علياء على الزواج من عامر، وتحديد موعد كتب الكتاب، ظل الجدُّ عصياً وغاضباً على الابن والبنت، والجنين القدس، صحيح أن المظاهر المسلحة اختفت واختفت معها الميلشيات، لكن الحصار الاقتصادي ظل مفروضاً، فالحدث جلل وقاس ولا يمكن لعقل الجد والجدة احتماله، بعد أن تمت مراسم كتب الكتاب، وانتقلت علياء إلىالشطر الشرقي في بيت والد زوجها، أغلقت أم عامر الباب من الداخل بالمزاليج الاحتياطية رافضة أي زيارة أو هواء، وفي الغرفة المخصصة لتكون بيت الزوجية دفع عامر فخذي علياء عن بعضهما وأحنى برأسه على بطن زوجته في هيئة اعتذار لولده الصغير القادم، ثم أخرج من عبه عقدا بالعمل في السعودية وقربه من فخذي زوجته علياء، وهمس للصغير، بهذا العقد ستخرج إلى الدنيا وفي فمك ملعقة من الذهب، بعد ذلك بدأ الأعداد للسفر للسعودية للعمل هناك في إحدى شركات البناء والمقاولات، وبعد سفرهما بدأ الذبول العظيم يصيب الأقرباء والتابعين وتابعيهم.

- عبلة عمة فالنتينا أسفت للسفر السريع وقالت ليتهم أخروا سفرهم حتى تضع فالنتينا مولودها ونراه ونرى لونه ووزنه، لأن الناس يقولون أن أولاد الزنا يكونون في غاية الجمال والذكاء، وليتني حبلت مثلها قالت لأختها عاتكة دامعة العينين: لكنت هربت بالصغير إلى آخر الأرض. ثم رفعت صوت الراديو إلى آخر عيار حتى يغطي على صوت البكاء العميق الذي أحدثه فراق ابنة الأخ فالنتينا

- عندما وصلنا إلى مطار الرياض في السعودية اندهشت من ضخامته وجماله...

ونظافته، وعندما اقتربنا من موظف تفتيش الحقائب وقعت في يد الموظف مجلة عربية. وعلى غلافها صورة لممثلة مصرية، أمسك الموظف المجلة وألقى بها إلى سلة المهملات، هذه الأشياء الخلاعية ممنووعة ونظر إلى وجهي... زوجتك مسلمة سأل الموظف زوجي عامر، طبعاً، أجاب عامر، لماذا لا تسترها سأل الموظف ثانية،

- سأشتري لها عباءة من الرياض

- إسلام آخر الزمان،

خفت أن يفعل بي الموظف كما فعل بالمجلة ويلقي بي في سلة المهملات، فأنا امرأة من لحم ودم وأكثر إثارة من

صورة الممثلة المصرية، لذلك ركضت إلى عامر واختبأت في ظله... لأن سلة المهملات كانت واسعة مثل المطار.

بعد وصولنا إلى الرياض، اتصلنا بالأصدقاء ونزلنا عندهم عدة أيام، ثم حصلنا على بيت مفروش في الضواحي بعد أن حصل عامر على العمل، البيت واسع، ومطبخه واسع، والبراد فيه واسع وكبير، بعدها حصل عامر على سيارة من الشركة وبدأنا نتجول في المدينة الكبيرة الواسعة. والشوارع الطويلة الواسعة، الحرية في هذه المدينة ممنوحة فقط للسيارات والأشياء المغلقة، لذلك يلود الناس بها.

ثم بدأت في حياتنا مرحلة جديدة أطلقت عليها اسم مرحلة الحظيرة، حيث قام عامر بجهد ملحوظ في تأمين الكثير من السلع والحاجات الضرورية وغير الضرورية وترسنا البراد بالأطعمة، وبدأت أحس بأنني يا والدي العزيز، ويا أمي العزيزة دبة قطبية شابة تعيش في الصحراء، وبدأت أشعر بالسمنة السريعة إضافة للحمل، ويا عامر أحس بأنني أصبحت مثل بقرة، وأخاف أن أذبح في العيد كما تقول الأغنية.

- لم يسبق لهم أن ذبحوا أحداً،

- ولكنت الأغنية تقول: (بكره عيدو منعيده.. ومندبح بقرة السيد

والسيد ما له بقرة... مندبح مرته هالشقره.

- وأنت تخافين من الذبح.

- طبعاً... فالأغنيات القديمة .. مثل النبوءات .. وهي تبحث عمن تتحقق فيه.

- أنت تخرفين.

- وأصبحت لا تفهمني أيضاً

- اذهبي إلى زوجات الأصدقاء وتبادلي معهم الزيارات والأحاديث وأشرطة الفيديو،

- النساء هنا كلهن سمينات ولا يمكن التفاهم معهن....

- لم تأتِ إلى هذه البلاد للتعالي واطلاق الأحكام يرد عامر بعصبية : وأشعر به متعبا ووحيدا،

وبدأت أستغرب ويستغرب الجنين معي، وبدأت أبكي وبدأ الجنين يبكي معي...

وأنا أسأل، يارب. ماذا يمكن لدبة قطبية أن تفعل في هذه الصحراء وهذه البلاد. سوى أن تأكل السمك، ثم أذهب إلى البراد وأرتكب معه أفعالا يندى لها الجبين، وأنا أتذكر والدي وصديقه، وأمي ووحدتها، ثم أفكر بالأمريكان وسكان البلاد، ويا والدي تصور، مدينة لا يوجد فيها نهر، والشيء الوحيد الذي يتدفق هو السيارات، هكذا أكتب لوالدي في الرسالة، وأخبره عن اقتراب موعد الولادة.

بعد سفر ابنتها فالنتينا. دخلت كاتيا العزلة والمرارة التامة وصارت مثل ذئبة جريحة تنتظر من يطلق عليها النار، وقد بذل الدكتور عواد جهودا كبيرة لإخراجها من العزلة والعواء، لكنها تابعت هذه الحال، حتى أصيبت بالذبحة الصدرية....

وبعد أن تم إسعافها نوّه الدكتور المشرف إلى خطورة الحالة وضرورة البحث عن أدوية من أركان الأرض الأربعة ومتابعة وضع المريضة الدقيق، غير أن كاتيا كانت تسوق نفسها سوقا إلى هذا المصير، فبعد سفر ابنتها إلى السعودية ووصول رسائل عن توفر الطعام والسيارات وصناديق القمامة، وأعواد السواك صارت تحس بوحشة هذا العالم ووحدتها فيه، وذات صباح انتبه الدكتور عواد فوجد زوجته في الصالة وقد وضعت عددا من الحقائب المملوءة وأعدت عدتها للسفر،

- إلى أين... سأل الدكتور عواد.

- إلى موسكو.

- ولماذا إلى موسكو... وبعد هذا العمر يا كاتيا.

- ألم تسمع بالبيروسترويكا، سأعيد بناء حياتي أنا أيضاً.

- معقول يا كاتيا، بيروسترويكا بعد الذبحة الصدرية.

- اسمع يا عواد .. علاقتنا ببعض ليست جيدة وفالنتينا بعيدة. لذلك اشتقت إلى موسكو، والغبار هنا كثير والأدوية قليلة، ولذلك سأسافر..

- ولكن الأوضاع المادية لا تسمح

- وفرت مبلغا كافيا وعندي سلسلة ذهبية سأبيعها

- وتتركينني وحدي ياكاتيا.

- عشرون سنة وأنا وحدي يا عواد.

- الأمر نهائي يا كاتيا.

- نهائي ياعواد، لكن لي طلب. عندما سأصل سأرسل لك عنواني ... إذا ولدت فالنتينا أخبرني برسالة، ولا تنسى أن تخبرني عن أحوالك، عندما لمحت ظهرها في المطار وهو يبتعد، أحسست بالفداحة، وبعمري كله وقد تكوم في حنجرتي... وبأشياء كثيرة ترتطم وتحتبس وتتكسر.

وفي البيت صرت للمرة الأولى وحيدا، في الماضي كنت أشعر بالوحدة، لكنني لم أكن وحيدا، كانت كاتيا وعلياء، ومداخلات الأهل، وعامر والميليشيات، وحوادث الثأر، والجامعة والأفغاني ، وأصدقاء المقهى، ثم بدأت أحس بالدم ينز من كفي.. فأستغرب وأبحث عن المسامير فلا أجد شيئاً، ألم تحبل مريم العذراء دون دنس، إذن يمكن للدم أن يسيل دون مسامير، فبعد الخمسين والوحدة المضنية وغياب كاتيا وفالنتينا، يصبح الكف رقيقا والجلد يصير أملسا وتخرج العروق،ويسير الدم وحيدا، وها أنا أحس به وبوحدته، وأشعر

بلونه وهو ينز من كفي.. الشيء الوحيد الذي يقتلعني من الإنتباه إلى الدم عندما أسمع صوت صحون كاتيا على الطاولة، فأهرع إلى غرفة الطعام فلا أرى شيئاً فأذهب للبحث عنها في جميع الغرف، وقد داخلني اعتقاد كبير أنها موجودة، ثم ومن فرط الخيبة أذهب إلى خزانة الألبسة التي لم تتمكن كاتيا من وضعها داخل حقيبة السفر فأفتحها وأخرج ثياب كاتيا الباقية وأعلقها على الحبال التي نصبتها في الغرف والممرات، وباحة الحديقة، ثم أحاول المرور من خلال الثياب وأتشممها حتى أشعر بالرفيف وبالرائحة ,أحيناً أجرؤ فأرفع أحد الثياب لألمح تحته ساق كاتيا المتجعد وأفك أزرار صدر الثوب لأتذكر نهدها المتهدل الذي غادره الحليب، وعنقها الذي لا تستطيع أية بيروسترويكا أن تعيد بناءه من جديد، ولكنني أحن إلى هذا الساق وهذه العنق، وهذا الصدر، المتهدل، المتهدل حتى لتكاّد الوحدة والنهر أن ينفرا منه، ثم أعود إلى رسائل فالنتينا. وتصور يا أبي، مدينة بدون نهر، والحرية ممنوحة للسيارات فقط، أشياء كثيرة، غير أنني أقصد أنهم طلابي في الجامعة ما عادوا يحبون الكلام الواضح والمنطق السليم. ولو كانوا يريدون ذلك لذهبوا إلى كليات العلوم للتخصص في الرياضيات، حتى الرياضيات يا دكتور، خرجت على المنطق وأصبحت تعتمد على الحلم، وأكمل الطالب كلامه وهرع إلى فتاة تنتظره دون أن يسمع مني ردا أو توضيحاً.. لذلك أنظر إلى كفي وأحس بالدم، في الماضي كان الطلاب ينتبهون إليّ ويؤخرون تنفسهم وسعالهم حتى لا يضطرب انتباههم، ويحدقون إلي كأنما يحدقون إلى أيقونة، وينتبهون ينتبهون كأنما على رؤوسهم الطير، وعندما أنتهي من المحاضرة تتبعني زوبعة من الطلاب والفتيات، وعلى وجوههم الغبطة والحماسة والأسئلة، كثير من الطالبات الشابات ورغم صفرتي الغامضة ورائحة السمن والدسم التي تنز من عشيرتي صارحنني بالحب وبالاستعداد للزواج مني، وقد كدت أن أفعلها، بسبب رأسي الذي صرت أخاف أن يتحول إلى طاولة من ضغط ضربات الصحون عليه، وها أنا أنتبه وأصغي لأسمع الخبطات يا كاتيا، لأسمعها، كلّ هذا كان يحصل معي في الجامعة بسبب قوة المنطق وحدته ووضوحه، وهاهم الطلاب الآن يضجون في الدرس، ويحسون بالإعياء وينتظرون لحظة انتهاء المحاضرة بانتباه شديد حتى يخرجوا إلى الهواء، ليتدفقوا في الممرات مثل نهر عظيم، دون أن يتيحوا لي طريقا للخروج إلا في نهاية الطابور الذاهب للحرب، ووحيدا وحيدا دون انتباه ودون أسئلة أذهب إلى غرفتي في الطابق الثاني من الكلية لأطلب فنجانا من القهوة ولأدخن تبغا قويا نفاذا حتى يغطي بحدته ودخانه على غيومٍ الوحدة التي تمسك روحي، وبعدها لأشعر بالدم ينز من كفي.

في البيت وأنا أتجول بين ثياب كاتيا وقعت يدي على كتاب القانون الروماني فذهبت إلى النجار وطلبت منه أن يصنع لي صليبا عاليا.. ولماذا ..؟ سألني النجار باندهاش عن السبب،

أجبته بعصبية، هل سمعت برأس المال، والمؤلفات الكاملة، وثياب كاتيا والدكتور عواد، والقانون الروماني، وابنتي فالنتينا التي تكاد أن تدهسها السيارات.

- قال : لم أسمع.

- قلت سأعلقهم جميعاً عليه، ثم أعطيته سلفة مع مقاييس الطول والعرض وطلبت منه أن يستعجل في الصنع، وحذرته من التأخير لأنني أخاف أن لا يظل عندي دم كاف ليلون المسامير ثم اتصلت بصديقي السابق الأفغاني وطلبت منه الحضور لأسباب هامة، وعندما جاء نظرت إليه، كان رثاً وغريبا، وبعد قليل من الانتظار أوضح لي بعنين زائغتين أنه قرر أن يتوقف عن إكمال مشروعه الضخم عن عصر النهضة الثاني بسبب ضعف بصره الشديد ثم طلب مني أن أدفع المبلغ الذي استدنته منه أيام الحصار . وأنه مضطر لشراء نظارة جديدة بهذا المبلغ وإلا فالحل الوحيد الذي يمنعه من السقوط هو الذهاب إلى مدارس المكفوفين.

عند ذلك طلبت منه أن يتوقف عن الكلام وبدأت أحكي له عن موت كاتيا وغياب فالنتينا وفشل المشروع العظيم الذي وضعته نصب عيني، وأخيراً هذه البيروسترويكا الرائعة،

- أستطيع قال الأفغاني أن أطلب من المصرف قرضا باسمك وأقتطع منه المبلغ عند الاستلام.

- أنا موافق... ابدأ الإجراءات فورا، ولكن .. هل نستطيع هل تستطيع،

- أستطيع ماذا، تساءل الأفغاني،

- هل تستطيع أن تكتب تقريراً، أنا أقصد " عندما هددتنني بضرورة الدفع..

لم تكن تعني أن تكتب تقريرا ضدي، كنت تهددني فقط من أجل المبلغ.. ولكنني الآن أرغب، أقصد أرجوك أن تكتب تقريرا ضدي وتقدمه للسلطات والأجهزة، والأشياء المختلفة، وليكن التقرير جادا وقاسيا وفيه اتهامات تصل إلى حد الخيانة، ألم تصلك الأخبار، لقد ماتت كاتيا وتركت ثيابها وأصوات خبطات الصحون وعندما تموت كاتيا أشعر بالدم وبالحاجة الشديدة للمسامير، عصر النهضة الجديد يحتاج للأنهار، وكتابة التقارير، انتبه، ألا تسمع، أنها تخبط بصحنها ويوجد عندهم أغنية أسمها كاتيوشا، وهي مثل جندي وحيد ذاهب إلى الحرب وحوله فلاحات وحيدات، وحولهم بوشكين وأبو فراس الحمداني والمتنبي وامرؤ القيس وأنا وجميعهم ينزفون كأنما أصيبوا بضربة واحدة، ,وأخبرهم في التقرير أن يخبروا ابنتي أن تلد ابنها في بلد فيه ماء كثير، ماء يمشي بحرية مثل السيارات، ثم أخبرهم أن كاتيا ماتت وإن ثيابها ترفُّ وأصوات خبطات الصحون تتصاعد كأنها موجودة، كأنها موجودة،

- انتهت-

❑❑❑

المحتوى

❑
❑❑

رقم الايداع في مكتبة الأسد - الوطنية

الماء..... والأسماء :رواية محمد أبو معتوق دمشق اتحاد الكتاب العرب 1998 ، 109 - 24سم..

1- 813.03 م ع ت م

2- 813.009561 م ع ت م

3- العنوان

4 - أبو معتوق

ع -1998/6/1002

مكتبة الأسد

❐